- **ثانيًا**: توفر الموارد البشرية والمادية.. ولم يحدث هذا في مكة، وحدث في المدينة، فكان فيها المهاجرون والأنصار قوة بشرية مؤمنة، وكانت موارد المدينة من زراعة وتجارة وبعض الصناعة، في خدمة الإسلام، وهذه هى الأسباب.
- **ثالثًا**: القدرة على تحريك هذه الموارد، أو هذه الأسباب، وهى سياسة المدينة الداخلية والخارجية، والتى نقرؤها في القصة في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴾

أرأيت أن الحديث لم يكن عن الماضى بقدر ما هو رسم للمستقبل وتخطيط له.

٤٦ـ ذو القرنين والتاريخ والتفسير

ذو القرنين من الشخصيات التى تناولها التاريخ والتفسير ولا تزال.

لم يذكر القرآن الاسم صريحًا مع أن مدخل القصة هو قول الله تعالى: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ قُلۡ سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا ﴾.

ونستطيع وهذا ما سننتهى إليه أن نقف عند حدود النص القرآنى وما فيه من العبرة طيل الوقوف عند المواطن التى وجهنا إليها، ونمر مسرعين بالمواطن التى أجملها ثم نضم أطراف الحديث، ونحاول فهمها في ضوء الآيات الخاتمة للقصة في السورة.

ونستطيع أيضا أن نطوف بكتب التفسير والتاريخ لنرى ما جاء فيها عن ذى القرنين وكيف حاولت تحديد الشخصية أو على الأقل ترجيحها، والإطار العام الذى يجمع هذه الأقوال، والمنهج الذى سنتبعه هو الدراسة المقارنة والتحليلية.

ولنذكر أولا: أن التحدى كان للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأن الذين تحدوه هم قريش، وأن الذين أعدوا الأسئلة هم أحبار اليهود في المدينة.

ومن المنطقى أن تكون الأسئلة متصلة من قريب أو بعيد بالتاريخ اليهودى، وهو مادة حياتهم.. فما أهم الدول ومناطق العمران الحضارى التى كان لهم بها صلة؟.

- أولا: الإمبراطورية البيزنطية ومن قبلها الإمبراطورية الرومانية، وهذه كانت مسيطرة على أجزاء كبيرة من حوض البحر المتوسط. (الشام. مصر. آسيا الصغرى. وما وراءهما غربًا في أوربا وإفريقيا).
- ثانيًا: الإمبراطورية الفارسية: وشهدت بابل أسر اليهود وإطلاقهم.. وإخراجهم وإعادتهم.. وسجلت أسفار العهد القديم جوانب من ذلك، وأسماء بعض أكاسرة الفرس، كما سنرى في الدراسة المقبلة..
- ثالثًا: ملوك اليمن.. وكانت لليهود في اليمن مواطىء أقدام ومناطق استقرار، وإن انعزلوا فيها نسبيا عن تيار الحياة المتدفق في حوض البحر المتوسط، والصراع بين الفرس والروم.
- رابعًا: وعندما اتصل المسلمون بالشرق الأقصى أخذت تتجمع لديهم أخبار عن هذه الحضارة القديمة والأصيلة، وما لملوكها من سلطان ونظام.. ثم سمعوا عن السد الجبار الذى أقاموه على حدودهم الشمالية، مما أوحى إلى بعض المفسرين بمحاولة تفسير قصة ذى القرنين، في ضوء الحضارة الصينية.

فهذه اتجاهات أربعة في التفسير، مضافة إلى التفسير القرآنى الذى يقف عند حدود الآيات دون تحديد للشخصية، وسنحاول أن نعرضها وأن ننقدها في ضوء المعطيات القرآنية.

ولكن ما أهم هذه المعطيات وهى الميزان الذى تزن به الاتجاهات الأربعة:

- أولاً: أن ذى القرنين مؤمن بالله تعالى.
- ثانيًا: ومن هذا الإيمان نبع عدله واستقامته وإيجابيته.
- ثالثًا: كانت له قاعدة ملك قوية انطلق منها.
- رابعًا: كان له نشاط نحو الغرب.
- خامسًا: كان له نشاط نحو الشرق.
- سادسًا: كان له نشاط في منطقة جبلية متوسطة، اقتضى منه إقامة فيها إلى حين، ليشرف على تنفيذ مشروع لبناء سد، يحول بين قوم مستضعفين وقوم مفسدين. وكان لهذا السد مواصفات خاصة، وله موعد يصبح فيه دكاء فيموج الناس بعضهم في بعض.

- سابعًا: لم يحدد القرآن زمانًا ولا مكانًا.. بينما في قصة الخضر يمكن تحديد الزمان بحياة سيدنا موسى عليه السلام..وفى قصة الكهف تعددت الأقوال زمانًا ومكانًا.. وقصة صاحب الجنة تكاد كلها أن تكون مثلاً ضربه الله تعالى لنا.. وقد بدأت بقوله تعالى: ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ ﴾ ولنبدأ الآن رحلتنا مع كتب التفسير والتاريخ..

أولاً الاتجاه الفارسى

ولعل أشهر من كتب في هذا الموضوع مولانا أبو الكلام أزاد وكان وزير المعارف في الجمهورية الهندية. وله فيه بحث طويل دعمه بالوثائق التاريخية، وشواهد من كتب اليهود في المجلد الثانى من كتاب، "ترجمان القرآن" وذلك في تفسير سورة الكهف.

ولقد لخص آراءه مولانا أبو الحسن الندوى عند دراسته قصة ذى القرنين في كتاب، " الصراع بين الإيمان والمادية: تأملات في سورة الكهف"[1].

العهد الذى ترجع إليه القصة هو عهد الدولة الأكمينية التى امتد سلطانها على الأرض المحصورة بين وادى السند والبنجاب في شمال غرب الهند شرقا، إلى حدود الإمبراطورية الرومانية غربا.. واستطاعت أن تنزع منها بعض أجزائها الغربية. وازدهرت هذه الدولة ما بين أواسط القرن السادس وأواخر الرابع قبل الميلاد.

وأبرز شخصياتها كورش وهو المعروف في الغرب باسم سيروس، وعند العرب قورش.

وقد بذل قورش جهده في توحيد إيران وضم أقاليمها الشمالية إلى الجنوبية. وقد امتدت فتوحه غربا في آسيا الصغرى إلى شواطئها الغربية، وتراءت له الشمس وهى تغرب فيما هو بحر اليونان حاليا (بين تركيا واليونان) ولعله قد وصل إلى منطقة أزمير الحالية حيث تتعدد الخلجان وأشباه الجزر، والرواسب

---

(١) نشرته: دار القلم: الكويت ط الثالثة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م انظر الصفحات ١.. – ١٢٢.
وانظر أيضا: احمد كمال الدين حلمى: ٣٥.. عام من عمر إيران الجزء الاول ص ١٢. – ١٢٥ ط. مؤسسة على جراح الصباح – الكويت ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م.

التى تحملها الأنهار.. فتجعل من المناطق الساحلية عينا حمئة..(وهذا ما يذهب إليه مولانا أبو الكلام أزاد)[1]

واتجهت فتوحه شرقا إلى مكران وبلخ ـ وما هو وراء النهر الآن ـ والقبائل هناك أقل حضارة من قاعدة الدولة هى قبائل بدائية غير متحضرة.. قبائل ليس لها ستر من حضارة..

وعاد مرة أخرى إلى بابل حيث شهد اليهود الأسر الذى كان أوقعه بهم ملك بابل(بخت نصر)، ورفع عنهم ما حل بهم.

فامتداد الملك كان شرقا وغربا، وتحركه بين هذه الأقطار، وسيطرته على الدولة مع اتساعها يعطى صورة عن مستواها. تبقى بعد هذا قصة السد. وهذه كما يذهب هذا التفسير كانت في بلاد القوقاز. والذين يعيشون إلى شمالها هم يأجوج ومأجوج، والذين يعيشون جنوبها قبائل مستضعفة، وفى الفجوة التى يتهددها الخطر، أقام السد.

وتسمى الكتابات الأرمينية هذا الجدار، أو هذا السد، منذ القدم باسم "بهاك غورائى" وباسم "كابان غورائى"[2]

ومعنى الكلمتين مضيق أو ممر غورش، وغور هو اسم غورش أو كورش. كما تطلق اللغة الجورجية على هذا المضيق اسم" الباب الحديدى ".

وهناك في المنطقة: سدود أخرى أبرزها جدار "در بند" أو باب الأبواب وهو الذى بناه أنو شروان (٥٣١ – ٥٧٩ م). وهذا قبيل ظهور الإسلام وبين بناء السدين نحو ألف عام.

وبعد مصرع قورش عام ٥٢٩ ق.م في إحدى حملاته تولى مقاليد الحكم ابنه الأكبر قمبيز. وكان يحكم بابل في عهد أبيه، وينوب عنه في الحكم عند غيابه، وقد ذكر المؤرخ اليونانى هيرودوت أن قمبيز كان عنيفا وقاسيا ميالا إلى التدمير والبطش، وهو الذى غزا مصر عام ٥٢٥ ق.م، وأهلك إحدى حملاته الكبرى في الصحراء الغربية المصرية.. ولم يعمر طويلا بعد عودته..

(١) أحمد كمال الدين حلمى: المرجع السابق ص ١٢٤

(٢) احمد كمال الدين حلمى: المرجع السابق ص ١٢٤

بقيت بعد هذا جوانب عن عقيدة قورش، وأسلوبه في الحكم وما يتفق مع النص القرآنى وما لا يتفق. وهذا ما سنتابع القول فيه.

٤٧ـ قورش في أسفار اليهود

جاء ذكر قورش في كتابات اليهود مرتبطا بما ذاقوه في مرحلة الأسر البابلى. وقد ذكروه بمدح وتمجيد.. وننقل هنا سطورًا من أسفار العهد القديم، توضح هذا الاتجاه ففى سفر عزرا (١:١) أن كورش ملك فارس أصدر نداء في السنة الأولى من حكمه بالرجوع بعد أن قضوا سبعين سنة في الأسر البابلى، وأعطاهم مالا يستعينون به على بناء الهيكل في القدس، كما أعطاهم الآنية المقدسة التى كانت فيه عند الغزو البابلى.. ويورد سفر أشعيا مدحا عريضا لقورش ((أنا الرب صانع كل شيء، ناشر السماوات وحدى. باسط الأرض...القائل عن كورش راعى، فكل مسرتى يتمم، ويقول عن أورشليم ستبنى، وللهيكل سيؤسس.. ثم يتابع الإصحاح قوله على لسان الرب عن كورش الذى أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أمما.. لأفتح أمامه المصراعين. والأبواب لا تغلق. أنا أسير قدامك، والهضاب أمهد.. ومغاليق الحديد أقصف، وأعطيك ذخائر الظلمة وكنوز المخابىء. (أشعيا ٤٤:٢٤-٢٨ , ٤٥:١-٣)

ذكرت هذه النماذج لأبين مكانة قورش في الفكر اليهودى، ولأمهد لوزن هذه النصوص في ضوء الآيات القرآنية من سورة الكهف.

ويمكن لمزيد من الدراسة العودة إلى أى قاموس للعهد القديم تحت عنوان (كورش) حيث تعطى حصرا بالاصحاحات والأرقام التى وردت فيها أخباره، كذلك ماجاء عن فترة الأسر البابلى.

كانت إذن لقورش ـ ولاتزال ـ مكانته في كل من التاريخ الفارسى القديم، والتاريخ اليهودى.. وهى مكانة وصلت عندهم إلى أن أصبح تاريخه جزءا من أسفارهم المقدسة...

ننتقل بعد هذا إلى الديانة الزرادشتية نفسها، وهى التى كان عليها كورش، لنراها في ضوء القرآن، كما رأينا كورش في ضوء أسفار العهد القديم، وسنرى من ذلك إعجاز القرآن الكريم في الاكتفاء بوصف صاحب القصة أنه: (ذوالقرنين) دون تحديد زمان أو مكان... ثم ذكر أعمالا إلى العبرة

أقرب منها إلى مجرد السرد أو التحدى التاريخى، هذا الذى نأى عنه القرآن، وأمر الله رسوله به في قوله عن فتية الكهف، وهو قول ينطبق على التحدى التاريخى كله ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ (الكهف: ٢٢).

الرأى الأكثر شيوعًا أن زارادشت كان ميلاده في عام ٦٦. ق م.. وكانت دعوته في الوقت الذى ظهرت فيه البوذية في جنوب شرق آسيا، والكونفوشية في الصين، وأشعيا من أنبياء بنى اسرائيل. وتذهب بعض الأقوال إلى أن مولده - أى زارادشت - كان نحو سنة ألف قبل الميلاد.

وكما اختلف الباحثون في تاريخ ميلاده، اختلفوا في موطن الميلاد.. وأطال زارادشت التأمل فيما حوله، وفى سن العشرين ترك أباه وأمه وزوجته التى اختاراها له، وأخذ يهيم على وجهه يلتمس الحقيقة الدينية، ويبحث عن الاستنارة، ويسائل عنها كل من يلقى.

وفى إحدى جولاته، وهو يبحث عن الحق استمع إلى صوت يقول: أطعم الفقير، قدم إلى الماشية العلف، قدم إلى النار حطبا، أضف إلى الماء رحيقا ثم أمرًا خامسًا توقف عن الاستجابة له، عندما أمره الصوت بعبادة أو تقديس بعض الشياطين.. رأى في الأربعة الأولى خيراً فقام به ورأى في الخامسة شرًا أواختبارًا فتوقف عنده..

وتذكر المصادر اليونانية أن زارادشت ظل صائمًا عن الكلام سبع سنوات معتكفاً في غار.. وفى نحو الثلاثين من عمره جاءه الوحى.. وتذكر الأساطير سلسلة من الرؤى المعجزة عنه.. رأى ملكًا يبلغ تسعة أمثال حجم الانسان وهو ملاك (الفكر الطيب): (فوهى مانا) وبعد أن اختبره أمره أن يستلقى على الأرض ويدع جسمه الآدمى، وتصعد روحه إلى لقاء (أهورا مزدا). وهو في ديانتهم الكائن الأعلى والخالق الحكيم، ومن حوله ملائكة.. واختفى ظله من الأرض من شدة ضياء الملائكة الذين أحاطوا به، وأوحى إليه "أهورا مزدا"، واصطفاه نبيًا، وتلقى منه شريعة ومناسك دين الحق.. وتوالى حضوره وعروجه والملائكة يعلمونه ست سنوات ومن هذه العهود نقرأ ما قاله زارادشت لربه: إننى عدو حقيقى لكل كاذب سأضع كل قوتى على طريق الحق. وأمضى عمرى أحمدك وأنشد لك... سأقدم الهبات لنارك المقدسة وسأكون على الحق ما بقيت لى القوة...

وبدأ في دعوته بعد أن تلقى الوحى، يدعو ولا يستجيب له أحد عشر سنين وظلت روح الشر تحاول إغراءه، والوسوسة له، ليدع الدين وعبادة "أهورا مازدا". ويسلك سبيل روح الشر.. وصمد زارا، وبعد عشر سنين كسب أول المؤمنين به ابن عمه.. وبدأت تنفتح القلوب: في شرق إيران لدعوته. وآمن به هناك أحد الأمراء وعارضه أنصار الدين القديم، وأفلحوا في إيداعه السجن، ولكنه صمد، واستعاد مكانته بما جرى على يديه من شفاء ومعجزات ووضع الأمير قوته كلها لتأييد دعوته، وتتابع المؤمنون به..

وخلاصة الديانة الزرادشتية: أن الكون من صنع خالق حكيم. هو "أوهر مزدا" الأكبر. والكون في ذاته خير ولكن فيه أيضًا شر. وهذا الشر من صنع الكائن الشرير: أهريمان. وله جنوده الذين يحاربون الخير، وسينتصر الخير في النهاية. ونحن في الدنيا نعيش الصراع بين النور والظلام.

وصفوة قصة الحياة: في البدء كان الخير. والآن صراع بين الخير والشر. وفى النهاية انتصار الخير، وعودتنا جميعًا إليه.

وفى هذه القصة: للإنسان دور أساسى.. وعلى كل إنسان أن يرضى الله، بمزيد من فعل الخير والانتصارعلى قوى الشر والظلام.

ويؤمن المذهب أنه لما كان الله هو الكبير المتعال، فإنه جعل وسطاء من الملائكة بيننا وبينه ـ ويشبهونهم بالحاشية حول الملك ـ ويمكن القول إجمالا أن الديانة الزرداشتية تتجه إلى هذه الكائنات العلوية الوسيطة (اليازاد) أكثر من اتجاهها إلى أهورمزدا الأكبر. ولكل من هؤلاء الكائنات العلوية مهمة خاصة وأكبرهم هو (ميترا) وهو المسئول عن مناسك العبادة وبيوت النار المقدسة. والمعابد التى يؤدون فيها شعائرهم.. حتى أن معابد النار يسمونها (بلاط ميترا) أو (قصور ميترا) ومع ميترا ملائكة أخرى أو كائنات علوية أخرى لكل منهم مهمة: المطر، السفر، الأرض، العدل الخ..

وإلى حد ما، فإن هذه الأرواح أو الكائنات تعكس قوى طبيعية أو تركيبًا منها.. وهى قوى يطلب الإنسان منها الأمن أو العون.

والشر في الزرداشتية ليس مجرد أمر أخلاقى، ولكنه أيضًا أمر يتعلق بالطهارة والرجس. وأطهر العناصر عندهم هى النار وهى رمز النقاء والاستقامة. ولمناسك النار في هذه الملة وضع مركزى.. ومن هذا المنطلق قسموا الظاهرات

والحيوانات إلى طاهر ونجس. فالماشية والطيور، كالديك الذى يطرد الظلام والصحة كلها طاهرة وخير. والعطش والفوضى والزواحف شريرة.

والبارسيون وهم الصورة المحدثة للزرادشتية لايدفنون ولايحرقون موتاهم، وإنما يضعونهم فوق ما يسمونها؛ (أبراج الصمت)..عرضة للمطر والطيور الجارحة.. وهى إذا أحرقت تنجست النار.

ويعتقدون أن الميت بعد ثلاثة أيام من بقائه فوق برج الصمت يمر على معبر أو صراط. (شينفاد) وهذا الجسر حاد كالسيف، ويتحول إلى طريق واسع إذا كانت الروح طيبة، وينتهى بالروح الطيبة إلى الفردوس، ولكنه يظل حادًا لاتستطيع الروح الشريرة عبوره وتسقط منه في الجحيم. وبهذا يرتبط في هذه الملة عمل الدنيا بجزاء الآخرة، كما يرتبط المصير العام للإنسانية بمصائر الأفراد وفق أعمالهم[1].

وبعد هذه الرحلة الطويلة مع الزرادشتية ماذا كان موقف الإسلام منها عندما فتح فارس؟. لقد رفع لواء التوحيد الصافى ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ و﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ واحترم الإنسان في حياته وموته. واعتبر كل ما خلق الله آيات على وجوده، وهو مسبح له جل وعلا..

وتراجعت الزرادشتية أمام أعلام التوحيد، ولجأت إلى مناطق منزوية، أو إلى الهند.. ولازالت منها بقية تحمل اسم البارسيين.. فهل تنطبق هذه الصفات على ذى القرنين كما وصفه القرآن الكريم؟.. هناك بعض التشابه، ولكن الفروق المؤكدة وبخاصة في العقيدة، تستبعد هذا الاتجاه.. فلننظر إلى القول التالى.

٤٨ـ الإسكندر المقدونى في التاريخ وعند اليهود

ذهب بعض المفسرين إلى أن الإسكندر المقدونى هو الأقرب إلى أن يكون ذا القرنين الذى عناه القرآن في سورة الكهف، ويربطون في هذا بين مكانته في التاريخ الإنسانى العام وفى التاريخ اليهودى.

(١) Ninian Smart: The Long Search ,pp٢٢٣ ٢٤, B.B.e. London, ١٩٧٧

وفى بيان هذا الاتجاه سنرجع إلى ترجمة معانى القرآن وتفسيره لعبد الله يوسف على. وهو من أوسع التفاسير الإنجليزية انتشارًا. وإلى هذا الإتجاه أيضًا ذهب مولانا عبد المجيد الداريابادى في ترجمته وتعليقاته.

كانت ولادة الإسكندر في عام ٣٥٦ ق.م ووفاته عام ٣٢٣ ق.م وبهذا تكون حياته ثلاثة وثلاثين عامًا، تركت على التاريخ الإنسانى في طابعها القوة.

وتصور العملات النقدية الإسكندر ولرأسه قرنان والقرن في العهد القديم رمز القوة. ورفع القرن كناية عن المجد، وكسره كناية عن الهزيمة.

ولقد سيطرت شخصية الإسكندر على مخيلة كثير من الشعوب القديمة، بما حقق من إنجازات غير مسبوقة، وما اجتمع بين يديه من مصادر القوة التى لم تجتمع لغيره. فهو ما لقى الهزيمة في أى معركة خاضها، وما تراجع أمام أى عدو، وإذا اعتبرنا مجال وامتداد عملياته العسكرية، فلن نجد في العالم القديم حتى قيصر، ولا في العالم الحديث حتى نابليون من يرقى إلى المدى العسكرى الذى بلغه الإسكندر في القارات الثلاثة: أوربا وآسيا وإفريقيا في سلسلة من الانتصارات المتوالية بقيادة واحدة في ذلك المدى الزمنى القصير.

ما مغرب الشمس ومطلعها وبين السدين ويأجوج ومأجوج إذا نظرنا إليها في ضوء من تاريخ الإسكندر؟ والقول هنا لعبد الله يوسف على، وقد خصص دراسة مستقلة عن ذلك بعد أن أتم شرح سورة الكهف.

عن مغرب الشمس: لعل المقصود هو بحيرة أوكايدا Ochaida إلى الغرب من المدينة التى تحمل نفس الاسم في جنوب صربيا في يوجوسلافيا الحالية. وتقع هذه المدينة على بعد خمسين ميلا إلى الغرب من موناستيا Monastia وترتفع ٢٢٦٠ قدما عن سطح البحر في منطقة جبلية من الحجر الجيرى. وتغذيها موارد مائية من أنهار جوفية. وتصل مياه البحيرة إلى درجة من السواد يعبر عنها اسم النهر الذى ينبع منها وهو نهر درينا الأسود. وإذا نظرنا إلى غروب الشمس من المدينة بدت كأنها تغرب في عين حمئة..

هذا عن المدى الذى وصل إليه الإسكندر غربًا وكان عادلاً مع القوم الذين يسكنون الأرض.

ولنتابع مسيرته نحو الشرق. ونرى ما كان من أمره في الأرض المباركة.

وتقرأ في سفر دانيال من العهد القديم (٣، ٤:١١) ويقوم ملك جبار ويتسلط تسلطا عظيما، ويفعل حسب إرادته وكقيامته تنكسر مملكته وتنقسم إلى رياح السماء الأربع.

وتذكر دائرة المعارف اليهودية (ص ٣٤١) أن اليهود كانوا وقتئذ الشعب الموحد الوحيد، والذى كان يؤمن بمجىء مسيح منتظر. ولقد تأثر اليهود المعاصرون للإسكندر تأثرًا كبيرًا به، وبهرتهم انتصاراته وأمجاده، ورأوا فيه المخلّص الموعود الذى يحقق السلام. هذا السلام العالمى الذى بشر به المرسلون من قبل. وقد فصّل المؤرخ يوسيفوس زيارة الإسكندر لبيت المقدس،واستظهر من إماراتها أنه كان موحدا. يقول: عندما دخل الإسكندر الهيكل قدم القرابين للرب حسبما أشار بذلك كبير الكهنة، الذى لقى ومن معه من القائد المنتصر كل إجلال. وعندما عرضوا عليه سفر دانيال ونبوءته بأن أحد اليونانين سوف يدمر إمبراطورية الفرس ظن أنه الرجل الموعود.

وهنا وقفة قصيرة قبل أن نتابع عرض الرأى مع المفسرين عبد الله يوسف على وعبد المجيد الداريابادى.

فقد رأينا في حديث سابق ما لقى اليهود من الفرس أسرا وتحريرا.. وما ذكروه عن مسيح منتظر وقائد مخلّص من الفرس.. وها نحن نرى مثل هذا عن اليونانيين انتصارا وانكسارا ومسيحيا ومخلّصا. ففى نصوص العهد القديم مدح وذم لملوك من الفريقين وانتظار مخلّص ومسيح منهما معا.. وإن داولتهما الأيام..

ونعود إلى التفسيرين..

أين مطلع الشمس الذى أدركه ذو القرنين؟ هناك في أواسط آسيا حيث شعوب دون ستر ـ أو بستر قليل ـ من ثياب ودور.

أما بين السدين فقد تعددت فيه الآراء. ويرجح المفسر موقعا شرقيا في وسط آسيا. وهو بهذا يرفض الرأى القائل بأن السد في جبال القوقاز أو أنه سورالصين العظيم

السد القرآنى أقرب إلى أن يكون بوابات حديدية منه إلى أن يكون حائطا..وهناك بوابتان حديديتان متباعدتان جغرافيا، اقترحتا ولكل منهما

ارتباطها المحلى باسم الإسكندر.. وكلتاهما قرب مدينة تحمل اسم دربند. وكلاهما تحمل اسم باب الحديد.

وقد درس عبد الله يوسف على كلا من البوابتين: وأشهرهما في العصور الحديثة قرب المدينة الميناء دربنت Derbent

وتقع في وسط الشاطئ الغربى لبحر قزوين في إقليم داغستان وهو الآن تحت السيطرة الروسية، وكان قبل التوسع الروسى عام ١٨١٣م يقع في فارس.

فى هذه المنطقه يبرز متن من جبال القوقاز يمتد شمالا نحو البحر. والحائط المقصود بلغ طوله نحو خمسين ميلا وارتفاعه نحو عشرة أمتار(ثلاثين قدما). ولما كانت أذربيجان الفارسية غير بعيدة عن هذا المكان خلط بعض الكتاب بينه وبين الباب الحديدى الذى يتفق مع الوصف القرآنى، والذى يرتبط بقصة الإسكندر المقدونى.

هذا السد قرب مدينة تحمل اسم دربند في وسط آسيا في إقليم حصار Hissar على بعد مائة وخمسين ميلا إلى جنوب شرق مدينة بخارى. هنا أخدود ضيق، تشرف الصخور على جانبيه، ويقع في الطريق الرئيسى بين تركستان والهند(خط عرض ٣٨ شمالا، ٦١ شرقا) ويطلق عليه الآن باللغة التركية يوزول خانة. أى بيت الماعز. وكان يعرف من قبل باسم الباب الحديدى. ولا يوجد باب حديدى فيه الآن. ولكن هذا الباب رآه الرحالة الصينى هوين تسانجHiunn Tsang في طريقه إلى الهند في القرن السابع الميلادى. لقد رأى بابين مكسوان بالحديد تحملهما حلقات ويمكن تحريكهما لغلق الطريق وغير بعيد منهما بحيرة تحمل اسم الإسكندر، ويربطها السكان بالإسكندر المقدونى. (وقد ورد وصف مفصل لهذاالمكان في الموسوعة البريطانية.مجلد١٣ص٥٢٦ الطبعة ١١)

ويرى عبد الله يوسف على أن يأجوج ومأجوج هم قبائل المغول الساكنون إلى الشمال، وأن قبائل تركية كانت تسكن إلى الجنوب وهى المعرضة للغزو، ومن أجلها أقام الإسكندر هذا الباب الحديدى الذى يحمى القوم من مباغتة الأعداء.. وأن قوله تعالى: ﴿ لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾ راجع إلى طبيعة اللغة. التركية المقطعية،والتى تختلف عن لغات غرب آسيا.

وتلك القبائل المفسدة هم من نسل يافث بن نوح. وأن تعبير((أرض جوج)) يستخدم في اللغات القديمة للدلالة على أرض البرابرة حيث لا حضارة مستقرة ولا نظام إلا الغارات والعنف.

وليس في الآيات دلالة واضحة على ارتباط دك السد بالآخرة فالآية تذكر قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾.. بعض المفسرين ذهب إلى ارتباط هذا بقرب الآخرة. وليس في الآية على هذا دليل.

والربط بينهما وبين قوله تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴾ هذا الربط أيضا لايقوم عليه دليل.. وإنما هو تشبيه باضطراب هؤلاء وهؤلاء عند انكسار السد بما يحدث-﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ﴾ ولهذا الترابط عودة عند شرح الآيات لغويا بعد العرض التاريخى للآراء..

وأكبر نقد يوجه إلى هذا الرأى هو عقيدة الإسكندر نفسها، وإن كان المفسر يدافع عنها. فلا نص على عدم إيمانه بالتوحيد، كذلك لا نص على تحديد الشخصية، وإنما النص على الصفات والأعمال.. فلنقف مع هذا الرأى عند هذا الحد لنتابع عرض الآراء الأخرى.

٤٩- ذو القرنين.. هل هو من ملوك الصين؟

يذهب الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير (١٦: ١٩ –٤٢) إلى أن ذا القرنين كان ملكا من ملوك الصين لوجوه:

١- أن بلاد الصين اشتهر أهلها منذ القدم بأنهم أهل تدبير وصنائع.
٢- أن معظم ملوكهم كانوا أهل عدل وتدبير للمملكة.
٣- أن من سماتهم تطويل شعر رءوسهم وجعلها في ضفيرتين فيظهر وجه تعرفه بذى القرنين.
٤- أن سدًا وردمًا عظيمًا لايعرف له نظير في العالم موجود بين بلاد الصين وبلاد المغول وهو المشهور بالسور العظيم.

وقد ذهب الإمام الطاهر إلى أن السد أنشىء في القرن الثالث قبل الميلاد، فهو متأخر عن الاسكندر بنحو قرن. وأن الصين حينئذ كانت تدين

بالكونفوشية. وصاحب هذا الدين مشرع مصلح. فلا جرم أن يكون أهل شريعته صالحين.

ثم يعقب على تاريخ هذا الملك الصينى بأن حالته ساءت في أواخر حكمه وأفسد كثيرا، والله أعلم بالحقيقة وبأسبابها.

وقبل أن يصدر المؤلف هذا الحكم- أو هذا الرأى نقد آراء الذين ذهبوا إلى أن ذا القرنين من ملوك فارس أو اليونان أو اليمن.. فلنسر معه لنرى كيف نفسر مغرب الشمس، ومطلعها، وبين السدين، وبناء السد، ويأجوج ومأجوج..

المراد بمغرب الشمس في الآية الكريمة (مكان) مغرب الشمس من حيث يلوح الغروب من طريق غزوته أومملكته.. إذ ليس للشمس مغرب حقيقى إلا فيما يلوح للتخيل (ولو قال للنظر لكان أقرب) والأشبه أن يكون ذو القرنين قد بلغ بحر الخزر وهو قزوين فإنها غرب بلاد الصين.

وهنا تحفظ نذكره لنعود إليه.. وهو أن معلوماتنا عن الصين في العالم العربى قد زادت كثيرا في السنوات الأخيرة مع زيادة العناية بالتاريخ العالمى منذ مطلع النصف الثانى من القرن العشرين..

وكانت أكثر معلوماتنا مقتصرة على أقطارنا وما حولها.. فالقول بوصول النفوذ الصينى في القرن الثالث قبل الميلاد إلى بحر قزوين يحتاج إلى دليل من تاريخ الصين و وسط آسيا، وهو مالم يرد في النص الذى بين أيدينا.

أما عن العين الحمئة فقال: يظهر أن هذه العين من عيون النفط الواقعة على بحر قزوين حيث مدينة باكو وفيها منابع النفط الآن، ولم يكن معروفا وقتئذ. والمؤرخون المسلمون يسمونها البلاد المنتنة..

أما مطلع الشمس: فهو جهة المشرق من سلطانه ومملكته، بلغ جهة قاصية من الشرق حيث يقال أن لا عمران وراءها. والظاهر أنه بلغ ساحل بحر اليابان في حدود منشوريا أو كوريا شرقا، فوجد قوما تطلع عليهم الشمس لا يسترهم من حرها، أى لاجبل فيها يستظلون بظله ولا شجر فيها، فهى أرض مكشوفة للشمس. ويجوز أن يكون المعنى أنهم كانوا قوما عراة، فكانوا يتقون الشمس في الكهوف أو في أسراب يتخذونها في التراب فالمراد بالستر ما يستر الجسد.

أما عن السد قال: السد ـ بضم السين وفتحها ـ الجبل. ويطلق أيضا على الجدار الفاصل، لأنه يسد به الفضاء. والمراد بالسدين هنا الجبلان. ويظهر أن هذا السبب ـ أوالطريق ـ اتجه به إلى غير المغرب والمشرق، وقد تكون شمالا أو جنوبا. وهو يرجح الشمال وأن موضع السدين هو الشمال الغربى لصحراء (جوبى) الفاصلة بين الصين وبلاد المغول. وقد وجد السد هناك و لاتزال آثاره باقية إلى اليوم. والمؤلف يقصد هنا سور الصين العظيم.

ولهؤلاء القوم لغة لم تكن مفهومة للملك لانقطاع أصقاعهم أو لعل في هذا إشارة إلى بداوتهم. وكأن الفقه هنا هو حسن الفهم.

ويأجوج ومأجوج أمة كثيرة العدد. أو أمة من شعبين كالمغول وبعض صنوف التتار. وهذا هو الذى يرجحه المؤلف. كما يرجح أن إنطلاق يأجوج ومأجوج هو انطلاق المغول والتتار على العالم الإسلامى وكان من آثاره اكتساح الدولة الخوارزمية وسقوط بغداد وانتهاء الخلافة العباسية عام ٦٥٦ هـ ـ ١٢٥٨ م.

ويفرق بين السد والردم فيقول: ﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ فإنه لاح له أنه إن سد عليهم المرور من بين الصدفين تحيلوا فتسلقوا الجبال ودخلوا بلاد الصين، فأراد أن يبنى سورًا ممتدًا على الجبال في طول حدود البلاد حتى يتعذر عليهم تسلق تلك الجبال، ولذلك سماه ردما. والردم: البناء المردم. شبه بالثوب المردم المؤتلف من رقاع فوق رقاع، أى سدًا مضاعفًا. ولعله بنى جدارين متباعدين وردم الفراغ الذى بينهما بالتراب المخلوط ليتعذر نقبه.

وقد بنى ذو القرنين سلطان الصين هذا الردم بناء عجيبًا في القرن الثالث قبل الميلاد، وكان يعمل فيه ملايين من الخدمة. فجعل طوله ثلاثة آلاف وثلاثمائة كيلو مترا. وجعل مبدأه عند البحر (أى المحيط الهادى) ويتجه بعد هذا غربا بانحرافات تقتضيها ظروف البيئة الطبيعية و توزيعات السكان.

وهو مبنى بالحجارة والآخر وبعضه من الطين. وسمكه عند أسفله نحو ثمانية أمتار، وعند أعلاه نحو خمسة، ويتراوح ارتفاعه بين خمسة وسبعة أمتار، وترتفع أبراجه نحو خمسة عشر مترا وبينها مسافات نحو سبعين مترا. وليس للسور الآن قيمة دفاعية ولم تبق له إلا مكانته التاريخية، وقد أخذت الصين في عمارته كأثر حضارى ومعلم سياحى.

أما عن استخدام الحديد والنحاس فيقول المفسر: كأن القصد إقامة أبواب من حديد في مداخل الردم لمرور سيول الماء في شعب الجبل حتى لاينهدم البناء، بأن جعل الأبواب الحديدية كالشبابيك تمنع مرور الناس، ولا تمنع انسياب الماء من بين قضبها. وجعل قضبان الحديد معضودة بالنحاس المذاب المصبوب على الحديد.

والصدف جانب الجبل. وهما جانبا الجبلين وهما السدان. ولايقال إلا صدفان بالتثنية. ولا يقال لأحدهما صدف، لأن أحدهما يصادف الآخر فالصدفان اسم لمجموع الجانبين مثل المقصات لما يقطع به الثوب ونحوه. ومن تفسير الصدف أنه كل بناء عظيم مرتفع.

وعن ختام القصة يقول المفسر بعد انتهاء البناء:

جملة ﴿ قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ مستأنفة استئنافًا بيانيًا لأنه لما آذن الكلام بانتهاء، كان هذا مثيرا سؤال من يسأل: ماذا صدر عن ذى القرنين حين أتم هذا العمل العظيم؟ فيجاب جملة: ﴿ قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾

فالسد رحمة للناس لما فيه من رد فساد أمة يأجوج ومأجوج عن أمة أخرى صا لحة.

وفرع عليه ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّاءَ ﴾ نطقا بالحكمة،لأنه يعلم أن كل حادث صائر إلى زوال. ولأنه علم أن عملاً عظيمًا مثل ذلك يحتاج إلى التعهد والمحافظة عليه من الانهدام، وعلم أن ذلك لا يتسنى في بعض أزمان انحطاط المملكة الذى لامحيص عنه لكل ذى سلطان.

وقوله تعالى: ﴿ جَعَلَهُۥ دَكَّاءَ ﴾.. الدكاء اسم للناقة التى لاسنام لها، وذلك على التشبيه البليغ. وجملة ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ تذييل للعلم بأنه لا بد له من أجل ينتهى إليه لقوله تعالى: ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ و ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ أى وكان تأجيل الله الأشياء حقا ثابتا لا يتخلف.

ويذهب المفسر في قوله تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ أى جعلنا يأجوج ومأجوج يومئذ مضطربين بينهم فصار فسادهم قاصراً عليهم. ودفع عن غيرهم لأنهم إذا لم يجدوا ما اعتادوه من غزو الأمم المجاورة لهم رجع قويهم على ضعيفهم بالاعتداء:

والنـــــار تأكـــــل نفـــــسها إن لم تجـــــد مـــــا تأكلـــــه

وكأن المؤلف هنا يذهب إلى أن بناء السد سيعصم المستضعفين الذين تقووا به و بالعمل مع القائد المؤمن.. فانقلب الغزاة على أنفسهم يأكل بعضهم بعضا..

هذه خلاصة ما ذهب إليه الشيخ الطاهر في تفسيره..

وعلى هذا المذهب تعقيب، نكتفى الآن منه بأن سور الصين العظيم إن يكن بإشراف حاكم واحد فقد كان بين أمة متقدمة هى الصين وقبائل أقل حضارة في الشمال. وأن بناء السد أرهق أهل الصين هو وحفر القنوات وقتئذ مما أدى إلى ثورة شعبية وذهبت أسرة وجاءت أسرة..

المدى بين المشروعين كبير، والوثائق الصينية فيها تفصيل نرجو أن يلقى الضوء على هذا الأمر لنخلص بعد هذا إلى الشرح في حدود الآيات الكريمة.

٥٠ – نقد الآراء في تحديد ذى القرنين في ضوء القرآن

بقى رأى رابع رجحه أبو الريحان البيرونى(٤٤٠هـ) في كتابه "الآثار الباقية عن القرون الخالية" بعد دراسة مقارنة وهو من الآراء التى نقلها الفخر الرازى في تفسير (١١: ١٦٥).

ويرى أن ذى القرنين من ملوك حمير (وهو أبو كرب شَمَّرُ يرعشُ بن إفريقش الحِمّيَرى) وسمى بذلك لذؤابتين كانتا تنوسان على عاتقيه وأنه بلغ مشارق الأرض ومغاربها وجاب شمالها وجنوبها ودوخ البلاد وأذل العباد وهو الذى افتخر به أحد الشعراء من حمير فقال:

قـد كـان ذو القـرنين قبلـى مـسلما ملكـا عـلا في الأرض غـير مفنـد
بلغـا المـشارق والمغـارب يبتـغ أسـباب ملـك مـن كـريم سيـد

ثم قال أبو الريحان ويشبه أن يكون هذا القول أقرب لأن الأذواء كانوا من اليمن، وهم الذين لاتخلو أساميهم من ذى كذا.. وذى نواس وغير ذلك.[1]

ومن عرض الآراء ننتقل إلى نقدها نقدا تحليليا، ونقصد به تفكيك ناقص الأحداث و وزنها بالميزان القرآنى و هو الأساس في هذه الدراسة.

ونبدأ بالرأى الأخير، وهو أنه من ملوك حِمْيَر والأدلة أربعة: الاسم: ذو القرنين والسد وامتداد الملك وأبيات من الشعر تدل على قبول قومه ذلك.

وللاسم أكثر من تفسير فلا يستقيم وحده دليلا، والسد لا تنطبق مواصفاته. وامتداد الملك أمر مشترك، وكذلك أبيات الشعر.. وما وراء ذلك من تفاصيل القصة: إيمانًا بالله وعدلاً بين الناس وحوارًا مع أقوام في مطلع الشمس ومغربها..كل أولئك لا نجد له مكانًا في هذا الرأى. ولقد كان أبو الريحان متحفظًا في قوله (ويشبه أن يكون هذا الرأى أقرب).

صحيح أن اليمن تشتهر بالسدود والجسور وأبرزها سد مأرب.. ولكن مواصفات السد القرآنى ووصف مغرب الشمس ومطلعها مما لايتفق مع معطيات التاريخ العربى في اليمن والسد الذى وصفه البيرونى كان في وسط آسيا وقد شكك فيه أيضا[2]، فكفة التباين بين النص القرآنى وهذا الرأى أرجح من كفة التشابه، مما تقوى به حجة الذين استبعدوه وهم كثير..

ننتقل إلى رأى الإمام الطاهر بن عاشور. وما يذهب إليه من التفسير الصينى.. وسيحملنا هذا إلى القرن الثالث قبل الميلاد، وإلى أسرة تشين (التى كانت تحكم الصين وقتئذ).. ماذا تقول الوثائق الصينية عن أقوى شخصياتها وإليه يرجع بناء السد وإقامة الدولة..؟

لنبدأ بالخيط الأول الذى شد الانتباه نحو هذا الرأى. إن سور الصين العظيم أشهر أسوار الدنيا.. وإلى جنوبه منطقة حضارة وإلى شماله منطقة قبائل رعوية أو متبربرة.. أو مفسدون في الأرض.

وحول هذا السد قام نسيج الرأى القائل بأن ذا القرنين من الصين وأن له علاقة بالسد..

---

(١) الآثار الباقية عن القرون الخالية للبيرونى ص ٣٦ – ٤٢

(٢) نفس المرجع ص٤١، ٤٢

والحديث عن الصين ينقلنا من مجال الأسطورة إلى مجال التاريخ، أقصد من شخصية لا سند لها من التاريخ ولا تحديد لها إلا الإطار العام الذى بيَّنه القرآن، إلى مجال تحدده الوثائق والوقائع..

ولنتوسع قليلا لنقول: إن تاريخ الصين على امتداده الطويل واتصاله تميزه ثلاث ثورات أساسية في نظامه وبنائه السياسى والاجتماعى.

كانت الأولى عام ٢٢١ ق.م وقد أنهت النظام الاقطاعى وأقامت الدولة المركزية، .وكانت الثانية عام ١٩١١ وقد أنهت النظام الامبراطورى وأقامت الجمهورية، بينما الثالثة عام ١٩٤٩ وبها قام نظامها الشيوعى بصبغته الخاصة وتطوره المستقل وخصوصيته الحضارية.

وتعنينا هنا الثورة الأولى لأنها المرتبطة بالسور العظيم

قامت نواة هذا العهد في الركن الشمالى الغربى من الصين الحالية (فى حوض نهر WEI) حيث منطقة حصينة يسهل الدفاع عنها، وأخذ حكام الشين يتوسعون شرقا دون خوف من أى هجوم غربى. وكانت قواتهم دائما على قدم الاستعداد لمحاربة برابرة الشمال.

وكان الشين من أول أهل الصين الذين استخدموا الأسلحة الحديدية بدلا من البرونزية، والفرسان بدلا من عربات الحرب التى تجرها الخيل واستطاع حكام الشين الاستيلاء على الولايات الأخرى واحدة بعد واحدة حتى أطلق عليهم معاصروهم اسم "وحش الشين البرى" وشبهوا توسعهم الذى لا تراجع فيه بدودة الحرير في التهامها ورقة التوت. وفى سنه ٢٢١ ق.م تم لهم السيطرة على الصين كلها، واتخذ القائد لقب، شيه هوانج تى Shi Huang-ti ومعناها الأمبراطور الأول، على أن يكون خليفته الامبراطور الثانى هكذا ـ كما قالوا إلى عشرة آلاف سنة ومعناها إلى الأبد.

ووضع الإمبراطور الجديد نظامًا وقانونًا يطبق على الصين كلها. وألغى جميع الولايات الإقطاعية والممالك. واعتبر مملكته وحدة لها أقسامها الإدارية، لكل منها جهازها الإدارى الذى تعينه السلطة المركزية وتراقب أعماله وهو مسئول أمامها. ونزع سلاح جميع المحاربين إلا جيشه. وأجبر الأسر الحاكمة القديمة على الإقامة في العاصمة تحت رقابته، وزرع حامياته وقواته العسكرية في كل مكان، وفرض نظامًا اقتصاديًا مركزيًا، حدد فيه الموازين والمقاييس والعملات.

كما وضع النظام الموحد للكتابة الصينية، بحيث يستطيع أن يفهمه أى صينى ومن طبيعة هذه الكتابة أنها لا تعتمد على عدد قليل من العلامات التى تعبر عن نطق معين. ولكنها تتكون من عدد كبير من الرموز، التى يبين كل منها شيئًا أو فكرة، وهو نفس الأمر المستخدم في الأرقام في لغاتنا.حين نكتب خمسة مثلاً ونضع رمزها يستطيع أصحاب اللغات المختلفة إدراكه، وإن أعطاه كل منهم في لغته نطقًا خاصًا..

هذه التغيرات الجوهرية التى قامت بها أسرة تشين، أصابت مصالح الكثيرين بالضرر، وأثارت موجات من الاعتراض، وبخاصة بين المثقفين. فماذا كان من أمر الامبراطور الأول ـ والذى أقام السور العظيم بعد ذلك؟

لقد أصدر أمره بإحراق الكتب، وأشعل النار في التراث القديم، إلا ما يتصل بفائدة عملية، كالطب والزراعة والعقيدة وفشلت الحملة لأن المثقفين أخفوا كتبهم، مع ما يعرضهم هذا له من عقاب، وحفظ آخرون متون الكتب عن ظهر قلب قبل أن يسلموها إلى الحكومة، وأخيرا.. و بعد سقوط تلك الأسرة عاد أغلب هذه الكتب إلى الظهور من مخابئها أو من صدور الرجال. و قد ألقى هذا الإرهاب الفكرى بستار كثيف على الثقافة الصينية وعهدها الذهبى في أسرة تشو التى سبقت الشين.

تبقى قضية السور العظيم..حقا لقد تقدم الاقتصاد الصينى.. وامتدت شبكة من الطرق تنطلق من العاصمة إلى أطراف الصين. وحدد الامبراطور حتى المسافة بين العجلات في عربات النقل، حتى لا تفسد الطرق. وهاجم القبائل الرعوية في الشمال. ولكى يتقى شرهم بنى السور العظيم، ويمتد نحو ألف وأربعمائة ميل من قلب منغوليا إلى المحيط، وكانت الخسائر البشرية رهيبة في هذا المشروع حتى أنه الآن، وبعد مرور ألفى عام على إنشائه. لازال الصينيون يتحدثون عن مليون من العمال ذهبوا ضحية هذا المشروع وأن كل حجر دخل بناء السور كان ثمنه حياة إنسان. وكما لعن المثقفون الإمبراطور لإحراق الكتب، لعنه الشعب لبناء السور العظيم.

ومن انتشار المعارضة ـ ولها جذورها الفكرية والإنسانية ـ رغم التقدم الاقتصادى وتوحيد الدولة، ولحاجة الإمبراطورية إلى شخصية قوية تخلف

الإمبرطور.. قامت الثورة العامة ضد أسرة تشين في عام ٢٠٧ قبل الميلاد وذلك بعد أربعة سنوات من وفاة الإمبراطورالأول.

ومع أن حكم الشين كان قصيرا ، فإنه ترك أثرا عميقا في التاريخ الصينى، نقل البلاد من مجموعة مفككة من الحكومات الإقطاعية إلى نظام مركزى ظل مستمرا إلى القرن العشرين، وإن الاسم الذى عُرفت به الصين في العالم الخارجى هو اسم هذه الاسرة[١]

وواضح من هذا العرض أن نظام الحكم كان استبداديا مركزيا. وأن إنشاء السد لم يكن نابعا من رغبة القاعدة ولا بمشاركة طوعية منها وإنما هو أمر وقهر وضحايا لا يستقيم معها بناء السد كما جاء في كتاب الله: ﴿ قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ .

ولو انتقلنا إلى الجانب العقائدى والفكرى نرى فيه جانب القهر أيضا.

صحيح أن الكونفوشية ـ دين الصين ـ تدعو الحاكم إلى الفضائل الخمس: التماسك والعدل والوفاء لوطنه والإباء والمودة.

إلا أن أكثر عنايتها بالأرض والحياة ومن نصوصهم ((إذا كنت لاتعرف كيف تعيش فكيف تعرف مابعد الموت؟))

ولكن عقيدة التوحيد كما يوضحها القرآن لا تنطبق عليها الكونفوشية التى كانت دين القوم وقتئذ..

ولا نملك إزاء ذلك إلا استبعاد هذا الرأى الذى يقول: بأن ذا القرنين أحد ملوك الصين فلننظر مرة أخرى إلى الرأيين الفارسى واليونانى.

٥١ـ عودة إلى الرأيين الفارسى واليونانى

نعود إلى الرأيين اللذين يذهب أحدهما إلى القول بأن ذا القرنين هو قورش الفارسى، والثانى إلى أنه الاسكندر المقدونى.. وهما أقوى الرأيين في هذا الأمر.

وتستند قوة كل منها إلى أمور مشتركة بينهما ، ولها سندها من التاريخ.

---

(١) Stavrianos ,L.S: THE world to ١٥٠٠,Aglobal history, pp.١٤٥-١٤٧

- أولاً: كان لكل من القائدين قاعدة حكم وامتداد شرقى وغربى.
- ثانيًا: كلاهما مؤسس كان يحترم الآخرين في ديارهم وعقائدهم، وله أساس أخلاقى يقيم عليه حياته.
- ثالثًا: لكل منهما صلة بالتاريخ اليهودى وهذه الصلة مسجلة وموثقة في العهد القديم وهى صلات إيجابية يذكرها العهد القديم بالإجلال ويعتبر كلاً منهما مخلصًا، رفع عن القوم الكثير من العنت.

ولقد كان من السؤال الذى رجع به وفد قريش، بعد لقائه أحبار اليهود في المدينة: سلوه عن.. رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ماكان نبؤه ؟

ألا ترى أن في السؤال تعميما ينطبق على أكثر من رجل؟ لم يذكر التحدى أنه كان ملكا ولاحاكما.. وما ذكر شيئا عما لقي في مشارق الأرض ولا في مغاربها وما ذكر شيئا عن السد، والقوم الذين لا يكادون يفقهون قولا.. ولا عن يأجوج ومأجوج..

لقد جاء ذكر الرجل وصفا لا تحديدًا ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ﴾ وقد رأينا أن هذا الوصف ينطبق تاريخيا على أكثر من رجل ترك طابعه على التاريخ اليهودى والتاريخ الإنسانى وأن شارة القرنين وصلت حتى إلى أنبياء بنى إسرائيل.

من أجل هذا كان التفكير في التحديد. وله نظائره في مواطن أخرى من سورة الكهف..

يكفى أن نرجع إلى قول الله تعالى:

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۬ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَـٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ (الكهف: ٢٢) ألم يكن يغنى عن هذا كله ذكر العدد؟.

لعل الحكمة في هذا، ألا يتبع الرسول والذين معه، منهج أحبار اليهود في تقصى التفاصيل، التى تصرف النظر عن العبر الكبرى في القصة. فالقرآن ليس كتاب تنافس تاريخى، ولاتكاثر في المعلومات يقول الأحبار ويسألون، ويجيب القرآن على تحدياتهم، وإنما أجاب القرآن إجابة تتجاوز أسئلتهم إلى الأهداف

الكبرى للهداية، ذكر تفاصيل في قصة الكهف، هى إلى العبرة أقرب، وتجاوز أمورا لا تخدم العبرة.

كذلك في قصة ذى القرنين، لم تكن الإجابة بحجم السؤال، وإنما شملت أمورا غير طواف المشرق والمغرب، وكان عندها أطول الوقوف، وهى قصة السد: حوارا و إنشاء و هدفا، و من قبلها حوار آخر في مغرب الشمس، هذا إلى أوصاف قوم المشرق، وطبيعة أرض المغرب.

ألا ترى أن القرآن الكريم في وقفاته الثلاث، مشرقا ومغربا، وبين السدين، اختار من كل وقفة مشهدا محددا غير المشهد الآخر؟ وأن المشاهد جميعا تتجه إلى أهداف القصة، وتتجاوز مجرد التحدى إلى بناء الحياة الجديدة؟

من أجل ذلك يمكن أن تتعدد الآراء في تفسير هذا النص القرآنى، وأن يكون في كل منها جانب أو أكثر من جوانب التطابق، دون أن يصل إلى التطابق الكامل.

ثم إنك إذا عدت إلى العهد القديم، وجدت أكثر من شخصية يستطيع اليهود أن يقولوا، وأن يشجعوا قريشا على مجادلة الرسول بأنهم قصدوا كذا، ولم يقصدوا كذا، وعن هذا نأى القرآن أيضا، حين اكتفى بقوله ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ﴾ دون أن يذكر الاسم.

أمر آخر:

إذا كان الوصف ينطبق على أكثر من شخص ـ ونقصد الوصف العام المتعلق بالطواف وبلوغ مشارق الأرض ومغاربها، فقد يكون في تحديد الرجل تكريما لفريقه وقومه وأعماله، بينما لأعماله نظائر سبقت أو لحقت، قام بها رجل أو رجال من قوم آخرين..

وفى التعميم هنا تكريم للعمل ذاته، دون تكريم شخص بعينه..

ألا ترى هذا أيضا في قصة موسى والعبد الصالح.. دون ذكر اسمه، ولا تحديد مكان "مجمع البحرين" ولا قوم الرجل أو قبيلته.. ؟

هذا وقد سجل القرآن أن أهل الكتاب اختلفوا من بينهم في أمور وصلت حتى إلى العقائد، وعلاقة الألوهية والبشرية، واختلفوا في مكانة الملائكة، وبين القرآن والعهد القديم تباين كبير في قصص الأنبياء.

ولقد نأى النص القرآنى عن هذا الخلاف كله، وحدد لنا الخط الذى نتبعه:

﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ وتبين أن القضية المحورية هى الإيمان بالله تعالى، ومنها تنبثق كل القضايا الأخرى:

﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾ (البقرة: ١٣٩)

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ (البقرة ١٤٥ – ١٤٧).

ذكرت هذه الشواهد الثلاثة: أولها من سورة الكهف وهى مكية. والقول. في مجادلة أهل الكتاب وقريش فيها موجز، وكان رجال قريش نقلة للأسئلة والتحدى بين اليهود والرسول، والشاهدان الثانى والثالث من سورة البقرة،وهى مدنية، وفيها مواجهة بين الرسول ويهود المدينة، وفى المواجهة يلقى الأضواء القوية على أساليبهم، يراهم ويرونه، ويغشون مجلسه، ويغشى ناديهم.

والعالم القديم فيه عدل وظلم، وقادة يهدون بالحق، وبه يعدلون، وقادة ظلمة باطشون، وقادة توسعوا في الفتح، ومناطق متعددة أنشئت فيها سدود، إما لأغراض اقتصادية كحجز الماء، أو لأغراض أمنية كحجز البشر المفسدين. وأنت واجدً سدودا متنوعة في اليمن والقوقاز، ووسط آسيا وعالم البحر المتوسط، والهند والشرق الأقصى.

وباب الأسئلة التفصيلية إذا فتح، فليس من اليسير إغلاقه، وفى قصة البقرة والسؤال عنها، ثم عن لونها، وماهيتها، بعد أن تشابه البقر، تعطى صورة من فكر القوم في التقصى الذى لا طائل وراءه، ولقد كان يكفيهم من أول الأمر أن يذبحوا أى بقرة..

وعن هذا الاتجاه أيضا نأى النص القرآنى الكريم.

تبقى بعد هذا قضية العقيدة، وهى القاسم المشترك في المشاهد الثلاثة، وفى قاعدة الحكم، وهى التى تراها في قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾ و﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ﴾ و ﴿ قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ﴾

وتحديد الأسم يقتضى شهادة القرآن بسلامة العقيدة، ولاتزال قضية عقائد الأسماء المقترحة: قورش من فارس والإسكندر من اليونان، ومن الصين الأمبراطور الأول.. لاتزال هذه القضية من أبرز نقاط الضعف ا لتى تقابلها جميع المقترحات.

ولقد حاول الذين ذهبوا إلى هذه الآراء الدفاع، عن عقائد هؤلاء القادة.. ولكننا نجد أمامنا ثلاثة مذاهب واضحة القسمات: الكونفوشية في الصين، والزرادشتية في فارس، وتعدد وتجسد الآلهة في الفكر اليونانى وإن كان لهم كبير هو أيضا متجسد، وبين آلهتهم صراع كأنما نقل القوم مشكلات الأرض إلى السماء. واعتبروا حياة الآلهة عندهم صورة لصراعات الأرض وإن كانت على مستوى أرفع وهى جميعا آلهة أسطورية.

من أجل هذا كله لانملك بعد هذه الرحلة من أقصى الشرق في الصين إلى اليونان غربا مرورا بفارس بينهما واليمن جنوبا، لا نملك إلا أن نقف عند النص القرآنى، نحاول تعمق ما فيه من العبر..

ذلك لأن قصة ذى القرنين قد نقلها القرآن ـ كما سبق القول ـ من مستوى التحدى العلمى والتاريخى، إلى مستوى العبرة، الذى يلقى الأضواء على جوانب من حياة القادة والشعوب والتعامل بينهما، ومقابلة تحديات الحاضر بمشروعات تمتد إلى المستقبل.. ومهما كان امتدادها فإلى حين..

والآن إلى النص القرآنى دراسة وعبرة لعلها أن تكون عونا على مواجهة الحاضر و بناء المستقبل.

ذو القرنين في ضوء القرآن

٥٢ – حتى إذا بلغ مغرب الشمس

نعود إلى قول الله تعالى:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ (الكهف: ٨٣ – ٨٥).

في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾

ونستطيع أن نفهم التمكين في الإطار العام للقضية.. لم يكن تمكينا سلبيا، ذو القرنين فيه هو المتلقى والمستقبل، دون عمل إيجابى، فالقصة مليئة بالحركة شرقا وغربا وبين السدين، متنوعة في الإنجازات ما بين الحوار العقلى والعدل والحساب والمؤاخذة، والتعاون في المشروعات.

فصورة التمكين القرآنى لقاء بين ما يوفره الله لعباده من إمكانات طبيعية وبشرية، وبين الجهود والمبادرات التى يقوم بها القادة والشعوب وهذه الجهود تتعلق بالأهداف والوسائل معا، وفيها الاستمرار الذى يحمله إلى النفس قوله تعالى(فَأَتْبَعَ سَبَبًا) وفيها النشاط والقدرة على الحركة الواعية التى لا يصلح معها ترهل فكرى أوجسمى، أو ترف أو لامبالاة. هذه هى الصورة الأولى التى يرسمها النص القرآنى لذى القرنين فلتتقدم معه خطوة أخرى:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ

وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴾ (الكهف: ٨٦ – ٨٩)

وهنا وقفة عند مناهج التفسير

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ ﴾

يقول الفخر الرازى: ولنذكر أن حياته كانت بين عامى ٥٤٤ – ٦٠٤ هـ إنه ثبت بالدليل أن الأرض كرة. وأن السماء محيطة بها. و لاشك أن الشمس في الفلك.. وأن ذا القرنين بلغ موضعا في المغرب لم يبق بعده شئ من العمارات و وجد الشمس كأنها تغرب في عين مظلمة و إن لم تكن كذلك في الحقيقة، كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب في البحر. إذا لم ير الشط وهى في الحقيقة تغيب وراء البحر. هذا هو التأويل الذى ذكره أبو على الجبائى في تفسيره(الرازى ١١: ١٦٧ـ ١٦٨)

فالقول بكروية الأرض كان متناقلا بين المفسرين في تلك القرون. وكان الذى يقول بذلك في العالم الغربى وقتئذ.. كأنه عارض النصوص المقدسة..

لقد أخذ المفسر بالرؤية المباشرة.. بالمشهد الذى رآه ذو القرنين وكل مشاهد يرى للشمس غروبا مختلفا: منهم من يراها تغرب في البحر، أو وراء الجبل، أو وراء النخيل، أو وراء الأفق إذا انبسطت أمامه الأرض.. وكما تتعدد المغارب مكانا تتعدد مشاهد..

ومن الممكن أن يمتد النص ويتسع ليشمل معنى تقتضيه الرؤية النظرية، ثم معنى آخر يقتضيه ما أثبته العلم إثباتا قاطع الدلالة..مثال ذلك الأرض في امتدادها وانبساطها الذى تراه العين والاستدارة التى يحملها قول الله تعالى:

﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ ﴾ (الزمر: ٥)

لفظ يكور يحمل معانى التتابع، وهو الذى كان معروفا عند نزول القرآن، ويحمل معنى الاستدارة الذى كشف عنه العلم، دون تعارض بين التفسيرين، وإنما امتداد: كأن اللفظ نقطة مركزية، والتفسيرات المتعاقبة دوائر حولها، تأخذ في الاتساع، كل منها تصور مرحلة من مراحل علم الإنسانية. وصدق الله العظيم:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت: ٥٣).

نأتى إلى قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ﴾ أى عند الموقع الذى بدأ غروب الشمس فيه.. وعلامته في هذا المكان بالذات، أن يبدو الغروب كأنه في عين حمئة وهو عمليا وعلميا إذا أدرك هذا المكان.. كان له مغرب آخر أكثر منه بعدا. وقوما.. هنا منكرة.. لم تتحدد لهم صفة من علم أو جهل، ولا من طاعة أو معصية، ثم قال الله تعالى:

﴿ قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾

ولكن ألا يحمل التخيير وجود شواهد تبرر كلا من التعذيب والإحسان؟ لعل هذا هو الأقرب، وبه تتحدد جوانب من شخصية هذا القائد المؤمن.

ونستحضر هنا من القرآن موقفين قريبين نذكرهما:

الأول: ما كان بين يوسف وإخوته، وقصة صواع الملك الذى كان في رحل الأخ الأصغر..

﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ ۙ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴾ (يوسف: ٧٨ – ٧٩)

ونقف طويلا عند هذا النص القرآنى ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ ۙ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴾

فلم يعامل يوسف الإخوة جميعا على قدم المساواة، وأبى أن يستبدل أخا بأخ، أو يأخذ رهينة بدل الأخ الأصغر وذلك بعد أن أشهد الإخوة على أنفسهم قائلين في الحوار الذى دار بينهم وبين رجال يوسف: ﴿ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ

﴿ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (يوسف: ٧٤ ـ ٧٥).

أذكر هذا، وأذكر العسف والجبروت الذى يلقاه الأحرار في عهود الظلم، والمطالبون بالحرية وهم تحت قهر الاستعمار الاستيطانى والأبرياء وهم تحت وطأة العقوبات الجماعية التى لا تفرق بين صغير وكبير، ولا بين إمرة ورجل وشيخ كبير.

والأمثلة أمامنا في الأرض المحتلة في فلسطين، وفى جنوب إفريقية حيث الظلم الجماعى، والعقوبات الجماعية، والقهر دون تمييز.. ولا هدف إلا التخلص من السكان وإخلاء الأرض لمستعمرين جدد..

وفى غير هذين القطرين أعرف ديارا يرفع بعضها أعلام العدل والإسلام والديموقراطية يتمنى أهلها أن يعيشوا في ظل الآية الكريمة:

﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴾

أو في ظل الآية الكريمة:

﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا ﴾

ولازلت أذكر تعقيب صديق عزيز سبق إلى الله وهو يقرأ هذه الآيات ويستعيد ذكريات حزينة:

جاءوا إلى الدار، ولم يجدوا الشخص المقصود فأخذوا إخوته وأباه الشيخ الكبير.. ودمروا البيت وهم يبحثون عن أى شئ، وأساءوا إلى النساء والبنات سبا وخرجوا وهم يقولون إذا أراد ابنكم فداء أهله، فهو يعرف الطريق إلينا..

* * *

وهناك موقف تخيير ثان جاء في القرآن عن الأسرى، فللقائد المن عليهم أو الفداء حسبما يرى من المصلحة.

والطريق الذى اختاره ذو القرنين أن وضع القاعدة السليمة، موضع التنفيذ. لم يطبق على الجميع حكما واحدا جماعيا وإنما ربط العمل بالجزاء على مستوى فردى:

﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ هذا أمر الخطاة الظالمين.

أما أمر الصالحين فقال عنهم:

﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾

ويأتى الجزاء هنا مثوبة على عمل، وقولا طيبا يوضح الجو الذى يتم فيه الجزاء.

ويلفتنا هذا إلى أن الأمر ليس تعاملا كأنه مع آلة حاسبة ولكنه تعامل إنسانى فيه العدل وفيه الإحسان. فيه الحق والكلمة الطيبة ولعل المقصود من الكلمة الميسورة، ما يكلفهم به من متابعة العمل الطيب، إحسانا لقومهم وأداء لحق الله في مالهم ومتابعة الطريق الطيب الذى سلكوه، ولم يصرفهم عنه ظلم الظالمين ولا إغراء أهل السوء..

وبعد أن أقام ذو القرنين ميزان العدل والخير بين القوم تهيأ لمرحلة جديدة من قصته..

فلنتجه معه إلى مطلع الشمس..

٥٣ـ مطلع الشمس وبين السدين

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ (٩٠ـ ٩٢)

وهذه رحلة إلى مطلع الشمس.. إلى الشرق، أقصى ملك ذى القرنين شرقا. وهذا التصوير يحمل أكثر من معنى:

- أولا: لا ستر لهم من الغطاء الصخرى كالجبال والكهوف.
- ثانيا: لا ستر لهم من الغطاء البنائى كالغابات والأحراج.
- ثالثا: لا ستر لهم مما يلبسون..

ولعل التفسير الثانى أو الأول أقرب.. وكأن الأرض ممتدة وراءهم شرقا، فإذا طلعت عليهم الشمس لم يجد بينهم وبينها ستر من ظاهرات الصخور أو الكهوف أوالنباتات.

ويقابل هذا الوصف العين الحمئة التى رآها في المغرب.

نقف قليلا عند قول الله تعالى (كَذَٰلِك).

ما المقصود منها؟

أولا: قد يكون: كذلك رأى سكانها، كمن لقيهم عند مغرب الشمس، ينطبق عليهم تخيير الله لذى القرنين ﴿ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنًا ﴾ وأن موقف ذى القرنين كان الإحسان إلى المحسن، ومجازاة المسىء.

ثانيا: وقد يكون المقصود: وكذلك أمر ذى القرنين كما نقص عليك، ونظيره قول الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا ﴾ (البقرة: ١٤٣).

وقوله تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا ﴾ أى أنه فيما آتاه الله من نعمة، وفيما يختبره به من عمل، وفى استقامته على أمر الله شرقا وغربا، بحيث يحمل ميزان العدل حيث يسير ذوالقرنين في كل هذا قد أحاط الله به علما..

ثم يقول تعالى:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ﴾

ولقد سبق القول أن موضع ((بين السدين)) مما تعددت فيه الآراء، وكثرت محاولات الكشف عنه، والرحلات إلى المواطن التى تردد القول بأن فيها سدودا تشبه من قريب أو بعيد ماجاء في الوصف القرآنى.

ولا تكاد تخرج هذة الأقوال ـ أو على الأصح ـ أرجح هذه الأقوال عن وسط آسيا وجبال القوقاز

ونقف هنا قليلا مع أبى الريحان البيرونى بعقليته العلمية الناقدة فى كتابه "الآثار الباقية عن القرون الخالية"..

ومع أنه لايرجح موضعا على موضع.. أى لا يحدد مكان السد أو ما بقى منه.. إلا أنه في نقده للآراء التى قيلت يقدم لنا نموذجا من البحث العلمى في هذا الأمر. يقول:

((فأما الردم المبنى بين السدين، فإن ظاهر القصة في القرآن لا ينص على موضعه من الأرض... وحكى محمد بن جرير الطبرى في كتاب التاريخ أن صاحب أذربيجان أيام فتحها، وجه إنسانا إليه من ناحية الخزر،فشاهده ووصفه ببناء باسق سام أسود، وراء خندق وثيق منيع. وحكى عبد الله بن خرداذبة في المسالك والممالك عن الترجمان بباب الخليفة أن المعتصم (الخليفة العباسى) رأى في المنام أن هذا الردم قد فتح، فوجه بخمسين نفرا إليه ليعاينوه، فسلكوا من طريق باب الأبواب واللان والخزر حتى بلغوا إليه وشاهدوه معمولا من لبن حديد، ومشددا بالنحاس المذاب وعليه باب مقفل وحفظه من أهل البلدان القريبة منها (ولعلها حفظة). وأنهم رجعوا فأخرجهم الدليل إلى البقاع المحاذية لسمرقند، فهذان الخبران يقتضيان كونه في الربع الشمالى الغربى من المعمورة.

ثم ينقد البيرونى هذه القصة ويذكر ما يزيل الثقة بها. فقد جاء في صفتهم أنهم يدينون بالإسلام ويتكلمون العربية مع انقطاعهم عن العمران وتوسط أرض سوداء منتنة قدر مسيرة أيام كثيرة بينها وبين المعمور الإسلامى. وأنهم لم يكونوا يعرفون الخليفة ولا الخلافة ولا من هو وكيف هو.

وهو يستبعد أمة مسلمة منقطعة عن الإسلام غير البلغار وجيرانهم وهم بالقرب من منقطع العمران ونهاية الإقليم السابع وهم لا يذكرون من أمر هذا السد شيئا، ولا يجهلون الخلافة والخلفاء، بل يخطبون لهم، ولا يتكلمون بالعربية بل لغة لهم ممتزجة من التركية والخزرية.

وإذا كانت شواهد هذا الخبر على هذه الهيئة لم يطمع منها في تعرف الحقيقة. وهذا ما أردت أن أخبر به من أمر ذى القرنين والله أعلم.[1]

والذى وضحته البحوث الأثرية، هو تعدد السدود في منطقة وسط آسيا وفى منطقة القوقاز. ومن قريب (شعبان ١٤٠٦هـ/ إبريل ١٩٨٦م) كنت في المؤتمرالسنوى الخامس للحضارة الإسلامية في عمان /الأردن. ولقيت زملاء من علماء أذربيجان، ودار الحديث عن سورة الكهف، فذكروا أن الكهف عندهم، وأن السد عندهم. وأن القوم هناك يزورون الكهف، ويذبحون عنده الذبائح..

وتعدد المواقع للقصة الواحدة أمر مشاهد،خصوصا وأن القرآن، كما سبق القول لم يحدد الموضوع تحديدا محكما إلا فيما يتصل بالعبادات كشعائر الحج والقبلة..

لاخلاف بين المسلمين على تحديد المعالم الأساسية من البيت الحرام إلى عرفات، ولا خلاف على تحديد ما جاء في الأحاديث الشريفة وتواتر العمل به في تحديد مواقيت الإحرام، وكذلك مسرى المصطفى عليه الصلاة والسلام من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

أما ما وراء ذلك ففيه تعميم، يكتفى فيه باسم إقليم أو قطر، أو صفة لمعلم من معالم القصة يخدم هدفها دون أن يدخل في التفاصيل المكانية والزمانية.

أمر آخر يتعلق بوسط آسيا يبدو في الآية التالية:

﴿ قَالُواْ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾

وهنا تتضح أمامنا ظاهرة تواتر حدوثها في التاريخ وهى العلاقة بين الجماعات المستقرة والجماعات الرعوية، ويبدو بها وجه من الأحداث التى عنى بها القرآن الكريم. ولنذكر أن سؤال كفار قريش كان عن رجل جوال بلغ المشرق والمغرب كان عن اتساع الرحلات فقط.. ولكن النص القرآنى أطال الوقوف عند أمر السد الحاجز بين مستويين من الحضارة:

(١) البيرونى: الآثار الباقية ص ٤١، ٤٢

لو صور في جانب قوما لا يكادون يفقهون قولا وتحمل هذه اختلاف اللغة، كما تحمل اختلاف المستوى الحضارى والفكرى.. وفى الجانب الآخر مفسدين في الأرض..

وعند خطوط العبور بين الحضارتين، إما أن يكون هناك معبر تمر به المؤثرات بين الحضارتين في تفاعل وإما أن يقام حاجز بشرى أو مادى يحبس الحضارة المفسدة فيما يمكن أن نسميه خزانا بشريا يموج بعضه في بعض ويحول دون تدفقها إلى مناطق الحضارة المستقرة.

خط اللقاء إذن إما أن يكون معبرا أو حاجزا قد يكون حاجزا منظم المرور السلمى في بعض الأوقات، وقد يكون حاجز عسكريا عليه القلاع والحصون وخطوط الدفاع ولهذا كله نظائر في التاريخ القديم والحد يث.. ولعل من أوسع نماذجه في العصور القديمة سور الصين العظيم بين حضارة الصين المستقرة وبين القبائل المغولية المائجة إلى شمال السور..

وقد يكون السد بين حضارتين متنافستين تخشى إحداهما الأخرى وتترقبان الفرص السانحة للانقضاض.

تطورت خطوط الدفاع إلى ما رأيناه قبيل الحرب العالمية الثانية في أوربا (خطى ماجيتو وسيجفريد).. وما نراه الآن في حرب النجوم والدفاع والهجوم النووى والاكترونى..

الأساس واحد، وإن تطورت الأساليب.. هل العلاقة بين المتجاورين معبر أم سد؟

ولقد شهدت أرضنا العربية ولا تزال تشاهد، نماذج من هذه الخطوط.. خط بارليف الإسرا ئيلى على شاطئ قنال السويس والذى دمرته القوات المصرية في حرب رمضان/ أكتوبر ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م. خطوط الرقابة الألكترونية التى أحاطت بها إسرائيل ما استولت عليه من الأرض العربية...

وفى العصر العباسى كانت هناك العواصم أو نقاط الحراسة والرقابة الأمامية بين الدولة الإسلامية والروم..

والحراسة واجبة ولكن القرآن أشار إلى جوانب في السد تستوقف النظر.. فلنحاول أن نتعمق فى الآيات لنرى بعض هذه الأبعاد..

٥٤ـ فأعينونى بقوة

ما الذى عرضه القوم على ذى القرنين ليحميهم من أعدائهم؟

﴿ قَالُواْ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾

وماذا كان رده:

﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾

وتتجه أكثر الآراء إلى أن يأجوج ومأجوج قبائل متبربرة تعيش في السهوب الآسيوية. وأنها كانت مثار تهديد مستمر للحضارات المستقرة التى قامت إلى جنوبها أو شرقها أوغربها.

ولك أن تتصور المنطقة الوسطى وامتدادها الشمالى (ونقصد هنا الشمال الجغرافى) ينبوعا بشريا فوارا، أوخزانا بشريا يمتلئ بالسكان، ويفيض على مناطق الحضارات المستقرة نحو الصين شرقا، ونحو مناطق الاستقرار في غرب آسيا وشرق أوربا و وسطها وأجزاء من غربها.

واستطاعت بعض أمواجه أن تعبر الجبال إلى أجزاء من الشرق الأوسط والهند.

وقد يكون هذا الفيض السكانى، وتحوله إلى غزو كاسح، راجعا إلى دورات جفاف تقل معها الأمطار والمراعى والمواد الغذائية، فتضطر هذه الجماعات إلى النزوح إلى ما حولها. وهذا النزوح قد يكون كسربا هادئا أحيانا، وقد يتخذ شكل موجات عنيفة منظمة أوغير منظمة..

وقد تتعاظم قوة السهوب وتجد القيادة القادرة على تجميع قواها البشرية فتنطلق كالإعصار الجامح كما حدث في الغزو المغولى الذى اكتسح الدولة الخوارزمية وأسقط الخلافة العباسية عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م ولم يقف إلا في معركة عين جالوت بعد ذلك بعامين فوق أرض فلسطين وكان الجيش المصرى فيه بقيادة قطز..

ولقد شهد التاريخ قبل هذا غارات القبائل المتبربرة التى استطاعت إسقاط الامبراطورية الرومانية عام ٤٧٦م أمام زحف القبائل الجرمانية ومهما تكن

الأسباب التى قيلت في سقوط الامبراطورية الرومانية أمام الجرمان: هل كانت عسكرية أواقتصادية وبخاصة نقصا في الإنتاج..

ومهما تكن الأسباب التى قيلت في سقوط الخلافة العباسية.. هل كانت تفككا في الدولة وضعفا في الروح الحربية واعتمادا على القوى المشتراة.. فإن الأمر الثابت هو أن مناطق الحضارة المستقرة اكتسحتها مناطق البداوية، وأن أبناء الحضارة عجزوا عن حماية أرضهم وأعراضهم وأموالهم وأرواحهم..

هذه هى القضية المحورية في الصراع بين مستويات الحضارات..

وإذا كانت الصيغة قد تغيرت في عصورنا الحديثة فأصبح قلم التاريخ في يد الحضارات الأكثر علما وقدرة عسكرية.. فلنذكر أن هذا العلم إنما هو جهد دائب وإبداع لا ينبتان إلا في قاعدة عريضة قادرة على تغذيتها بشريا وماديا..

وهذا لايقلب المعادلة بل يزيدها تأكيدا.. من هو الأقدر على حسم المعركة لصالحه، مهما يكن مستواه؟

ونعود إلى مشهد ذى القرنين وأمامه طرفا الصراع ماذا قدم الطرف الذى بدأ معه القول:

إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض هذه هى الحيثيات التى سيبنون عليها الاقتراح:

-فهل نجعل لك حرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا؟ الذى عرضوه هوالمال وكأنهم يريدون أن يحتموا وراء أرصدتهم. خط الدفاع هو أوراق من دفتر الشيكات

-إذا شئنا اصطلاحا معاصرا- أو تحويلا من الأرصدة..

لا نرى في عرضهم مبدأ المشاركة البشرية ولا التعاون في إقامة السد. مجرد دفع تكاليف السد. لا أكثر.

والقائد الحكيم لايعترض، ولا يسفه الرأى، وإنما يتناوله برحمة ولين وتوجيه:

﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾

وهذا قول يحتاج إلى تأمل كبير.. فهو خطة تكوين شعب قبل أن يكون خطة حماية شعب..

الحماية وقت القول قائمة بوجود جيشه وقواته وعدته.. وهو لا يحدث القوم عن شئ مجهول ولا عن غيب حين يقول لهم:

ما مكنى فيه ربى خير. نعم إنه خير مما تعرضون وهو خير في ذاته. وهو يقود إلى خير..

﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ ما بمعنى الذى تفيد الشمول. ولقد مكنه الله من قوى مادية وبشرية وفكرية وتنظيمية. عنده القدرة كما سترى- على اقتراح المشروع وتصميمه والإشراف على تنفيذه وعلى اختباره.

-فأعينونى بقوة.

إنه يطلب منهم العون وهو القائد الذى يطلبون منه العون. فمن يعين من؟ هنا يجلى مفهوم المشاركة. سيكونان كاليدين تغسل إحداهما الأخرى. سيحدث الالتحام بين القيادة والقاعدة. وبين الفكرة والعمل. ستتحول الأفكار إلى حقائق ملموسة يشاركون جميعا في صياغتها، ويستطيع كل مواطن من القوم أن يقول: لى في هذا السد نصيب..

ترى هل استعيد جانبا من قصة السور في الكويت وكيف تعاون الجميع في عام ١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م على إقامته في وقت قياسى. وكيف كان السور هو التجسيد الناطق بالإرادة الواحدة للشعب الواحد من أجل الهدف الواحد؟ هل أقول كيف أصبح السور وساما على كل صدر، وشرفا لكل فرد، وحصنا لكل مواطن.. هل أقول كيف كانت لبناته بنيانا مرصوصا..

لا يتحقق إلا في أمرين: صف الجهاد وصف الصلاة.. هنا الإرادة عبادة. والعبادة إرادة. هنا تستطيع أن تسمع صوت العزة يتحدث بغير لسان و يعبر بالصمت فوق تعبير الكلام..

فالقصة قديمة ومتجددة. قصة الإرادة حين تتحقق في الحجر والحديد والقطر المذاب.. كما تتحقق في الجيش والسلاح والعين الحارسة والقدم الثابتة..

وقال القائد: ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ﴾.. والقوة هنا نكرة لتدل على العموم وهنا نذكر قول الله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ (الأنفال:٦٠)

فمع كل مصادر القوة في الآية نرى تخصيصا لرباط الخيل باعتبارها أقوى القوة الضاربة وقتئذ.. ويقابلها في عصرنا الأسلحة الأكترونية برًا وبحرًا وجوًا.

كذلك كان قول القائد قوة من كل مظانها ثم تحديدًا لأبواب معينة يريدها في المشروع.

ولماذا يريد هذه القوة ؟ إنه حدد الهدف: ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾.

إنهم سألوه سدًا، فقال ردمًا. فما الفرق بين السد والردم؟ إن السد مجرد حاجز يبنيه بين الصدفين (والصدف منقطع الجبل المرتفع) وذلك ليسد الممر بينهما.

ولعل ذا القرنين أطال التأمل في قولهم: إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض..

يأجوج من الأج وهو اشتداد لهيب النار. ومأجوج من المج وهو اشتداد الموج.. الاسم يحمل صورة اللهب والاندفاع معًا.. البركان والفيضان.. زفير النار وهدير الموج.. ومفسدون.. اسم الفاعل الدال على الاستمرار.. الأرض: وهم قيد البصر ووراء الصدفين.. والطريق بين الجبلين هو طريق الخطر الملتهب المتدفق.. فلابد من مزيد من الحرص. أى سد لايكفى. لابد من سد مضاعف قوى.. وهنا تبرز أهمية قوله: ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ وما الردم؟ نعود إلى لغتنا العربية نسألها:

الردم: البناء المردم. شبه بالثوب المردم المؤتلف من رقاع فوق رقاع، أى سدا مضاعفا. ولعله بنى جدارين متباعدين وردم الفراغ الذى بينهما، ليتعذرنقبه.

ولما كان هذا يستدعى عمله كثيرين قال لهم: ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ﴾

هنا نجد أن الإجابة تخطت السؤال، ودخلت في تفاصيل تجمعها كلمة واحدة هى الردم،. وأن أى مشروع يقام ينبغى أن يحدد أصحابه الهدف المقصود منه، والمستوى الذى ينبغى الالتزام به، والمقاومة التى يستطيع الردم أن يتحملها، وأن يكون هذا كله خاضعا للاختبار، كما سنرى فيما نستقبل من القول.

لم يكن هدف ذى القرنين مجرد الاستجابة لما أرادوا وإنما تصميم المشروع وتنفيذه من أجل الهدف الأساسى، وهو قدرة الردم على تحمل مسئولياته..

وهذا درس آخر في العلاقة بين المشروعات وأهدافها تستطيع أن تستقرئه من قصة ذى القرنين.

وبقيت بعد هذا دروس أخرى.. فلننظر هنا في الآيات التالية.

٥٥- قال هذا رحمة من ربى

﴿ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾ (٩٦ – ٩٨)

ونبدأ أولا بمعانى الألفاظ. زبر الحديد قطع الحديد الكبيرة جمع زبرة. والصدفان: جانبا الجبل. والنفخ في الكيران المصفوفة لصهر الحديد. والقطر: النحاس المذاب. والظهور هو العلو. والنقب: كسر الردم.

وتحس وأنت تقرأ الآيات أنك في موقع العمل. حديد. نحاس. صهر. مراقبة للإنتاج. مساواة بين الصدفين. اختبار للارتفاع وللسمك. ربط بين العمل والعقيدة. وبين العمل وهدفه وبين العمل ومنتهاه..

صورة مكثفة يتحرك فيها الإنسان، ويتحرك فيها المعدن وتتبدل بها صورة الأرض أمام الإيمان والعمل.. فلنحاول أن نتتبعها بشئ من التفصيل.

ونعود إلى كلمة (قوة)، لنرى فيها عموم القوة، التى لا تشترط أن يكون السد أو الردم من حديد ونحاس فقط.. ففى قول القائد: ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ

رَدْمًا ﴾ يحمل إلى النفس والفكر تعدد المواد التى استخدمها دون الاقتصار على الحديد والنحاس.. تماما كالتنوع في القوة الذى نجده في قول الله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ ففى الغزوات والحرب يحتاج الجيش إلى إمدادات وتموين متنوعة ومتكاملة يدخل فيها العديد من المواد.. وذلك كذلك.. ولعل ذكر الحديد والنحاس هنا يقابل ذكر رباط الخيل بعد القوة في سورة الأنفال. ولنذكر ارتباطها بغزوة بدر في العام الثانى للهجرة.. أى في مطالع حياة المدينة. وهى أمر دائم بدوام وتكامل واتساع الاستعداد والإعداد.

ولعل في قول القائد آتونى زبر الحديد ما يحدد أبرز معالم الردم في مرحلة التسوية ومن بعدها إفراغ القطر في مرحلة الإكمال.. وتبقى العبرة الكبرى في المشاركة الفعلية: ﴿ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ ﴾، ثم ﴿ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ﴾. وتتسع الآية لتشمل إحضاره إلى موقع الردم من أى مكان فيه المعدن. على القوم أن يحضروا الحديد وأن يحملوه إلى موقع العمل..

وتحول القوم الذين كانوا يقولون: ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ إلى قوم متعاون يحملون حجارة الردم وحديده، وينتظمون جماعات متعاونة يختلط عرقها ببناء السد، وتساهم سواعدها في الإنشاء، فيتكون الترابط العضوى بين القوم ومشروعهم..

كان من ذى القرنين القيادة التى فجرت في عقولهم وأيديهم وقلوبهم ينابيع القوة والثقة بالنفس، وبرهنت لهم عمليا على أنهم قادرون على حماية أنفسهم لو توفرت لهم القيادة الحكيمة والقاعدة المتعاونة، وأحسنوا استغلال مافى ديارهم من مصادر القوة البشرية والمادية..

ويرتفع الردم شيئا فشيئا. يدعمه الحديد المستخدم بأسلوب، يتمكن معه المسئولون عن الصهر من القيام بعملهم في وقت محدد.. لن ندخل في تفاصيل الصهر، وما يحتاج إليه من إيقاد النار.. وما تحتاج النيران من أخشاب أو فحم أو مواد سريعة الاشتعال كانت قريبة منهم (ولنذكر أننا هنا لسنا بعيدين من موارد النفط، وكيف كان يتفجر في بعض المواطن ويشتعل.. لن ندخل في تفاصيل

ذلك، وما حدثنا القرآن عنه.. وإنما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ﴾.. أمامنا عمل علمى جماعى بخطوات مدروسة، ولعلها - والله أعلم - لم تكن التجربة الأولى لذى القرنين في إقامة سد أو ردم.. خطوات العمل كما تمثلها الآية الكريمة مدروسة متتابعة تحمل روح الثقة فيما يعمل، وروح التجارب السابقة التى حدد بها الانتقال من مرحلة إلى أخرى.

والعمل - بهذه الصورة - مدرسة لهؤلاء القوم.. وكأنه يقول: هكذا يبنى الردم.. وهكذا تستطيعون صيانته وحمايته، وجبر أى كسر فيه أو استدراك أى صداع أو استبدال أى جزء يتآكل مع الزمن..

وكأنه مع بناء السد، كان يبنى في نفوسهم الثقة والعزيمة، وتناسق البناء المادى مع البناء النفسى.. وتم إنشاء الردم..

ولكن ماذا كان موقف القائد؟

لقد علمهم درسا آخر، هو أن يختبروا العمل بعد إنجازه ولا يفرحوا بمجرد النظر إليه..

هل أتابع التصور فأقول: إن العمل وقت البناء كان مقسما على الأقل بين ثلاثة فرقاء..

الأول: عليه العمل. والثانى: عليه إحضار المواد والطعام والشراب. والثالث: عليه الحراسة.. هذا أقل وأبسط تقسيم يمكن تصوره في إنجاز هذا العمل، ويرتبط به درس آخر هو تقسيم وتوزيع المسئوليات قبل العمل وفى أثنائه.

كان لابد من اختبار قوة الردم و تبدو في أمرين:

امتناعه على أن يظهره العدو أو ينقبه.. الصعود أو الاختراق. وأيهما أصعب؟ لاشك في أن الاختراق والنقب أصعب من التسلق والظهور.. ومن هنا تبدو حكمة النص القرآنى في استخدام صورتين من فعل واحد:

﴿ فَمَا ٱسۡطَٰعُواْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ﴾ وزيادة المبنى في الكلمة تدل على زيادة معناها. والجهد المبذول في النقب أكبر من المبذول في الظهور.. من أجل هذا قال عن الظهور: فما اسطاعوا. وعن النقب: فما استطاعوا بزيادة التاء.

وفى خشوع المؤمن نسمع صوت القائد:

﴿ قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّي ﴾

ما المقصود من ((هذا)) اسم الإشارة الموجز الذى لخص الأمر كله.

ولنتصور القوم وأمامهم القائد وهم يقفون خلف الردم الذى بنوه.. يقفون بعد أن ارتفع البناء وتماسكت أركانه وامتد بين الصدفين.

ولعلهم قد استعادوا أيامهم السابقة وهم تحت تهديد يأجوج ومأجوج، وإندفاعهم بين الصدفين كالسيل الهادر يفسدون في الأرض ويأخذون من خيراتها ومن الخرج ما يشاءون، ثم يعودون إلى سهولهم الواسعة، ويتركون وراءهم هؤلاء القوم يعملون ويكدحون.. ليعود المفسدين ليشاركوهم جهودهم ورزق أولادهم..

ولعلهم يستعيدون كيف سرت روح القوة في نفوسهم، وإعانتهم القائد على التغلب على نوازع الضعف، والتخاذل أمام العدو، وشراء الأمن المؤقت بالبذل الدائم من أموالهم و أرزاقهم.

ولعلهم الآن يحسون لذة العمل، و لذة الإنجاز. ويحسون الأمن والأمان. بل يحسون القدرة على الدفاع عن أنفسهم بعد رحيل القائد عنهم..

كل هذا لخصه القائد في جملة واحدة ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّي ﴾ العمل رحمة. التعاون رحمة الإنجاز رحمة. العزة في الوطن رحمة. صيانة المكتسبات رحمة. الإيجابية رحمة. تنشئة الجيل الجديد على العمل والكرامة رحمة..لقاء الفكر واليد وإرادة القيادة والاستماع إلى صوت القاعدة رحمة..

ألا تحس أننا الآن في عالمنا العربى محتاجون إلى هذا الأسلوب الذى تتصالح فيه الأيدى مع الأفكار، وتتحول الجموع إلى إنتاج مشترك تشرف فيه اليد بأن تعمل، والفرد بأن يتعاون، ويعتبر فيه حمل المواد الأولية إلى مواقع حماية الأوطان وبنائها كرامة وعبادة؟

لقد ابتعدنا بعض الشئ ـ أو كثيرا ـ عن الاعتماد (على أيدينا، والمال ليس عوضا عن اليد.. والفكر ليس عوضا عن اليد. إن اليد هى القادرة على ترجمة الفكر وتجسيده. ومن هنا تأتى ضرورة العناية بتكامل التربية لتجمع بين الفكر واليد وإلابداع فيهما معًا.

ألا نحس أننا في تطوير التعليم والتربية نقترب شيئا فشيئا من منهج ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ﴾.. وأن تكوين الفرد على هذا المنهج إنما هو بناء للحياة وصورة من رحمة الله؟..

ثم يختم القائد نجواه لله وللقوم قائلا:

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾ متى هذا الوعد؟ هل إذا أهمل القوم حماية أنفسهم؟.. هل إذا تركوا الردم لذاته تأكله الأيام وتنقصه من أطرافه؟ إن أعين المفسدين أمام الردم لا ترقيه.. فإذا ظلت الأعين الساهرة ترعاه فسيظل حارسا، وإذا اغفلت عنه مال عليهم المفسدون ميلة واحدة.. هذا هو الوعد الذى يندك فيه الردم..

﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾ أى سنة الله في خلقه تأييدا للعاملين، وجزاءا وفاقا للمتهاونين..

٥٦ـ الناس بين الموج والجمع

يقول الله تعالى:

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ﴾

ما مفهوم الترك في هذه الآية؟ وما اليوم المقصود فيها.. يوم يموج بعضهم في بعض؟

حقيقة الترك مفارقة شئ شيئا كان بقربه، ويطلق مجازا على جعل الشئ بحالة مخالفة لما كان عليه[1].

(١) التحرير والتنوير ١٦: ٤٠

جاءت هذه الجملة بعد أن أتم ذو القرنين بناء السد واختبره ﴿ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ﴾

تركنا هنا تفيد تغير الوضع عما كان عليه وتحمل أكثر من معنى.

الأول: عندما بنى ذو القرنين السد استطاع أن يقيم حاجزا بين القوم وبين يأجوج ومأجوج الذين أصبحوا يومئذ محصورين وراء السد، يموج بعضهم في بعض هذه الصورة هى الهدف الأول من بناء السد. ولها نظائر كثيرة في العلاقة بين مناطق الرعاة ومناطق الاستقرار والزراعة، أو بين مناطق الحضارات المتباينة أو المتنافسة.. عندما تتحول المعابر إلى حواجز.

ومع أن الحاجز ـ بطبيعته ـ تعديل لظاهرة طبيعية أو على الأصح، إيجاد لطبيعة جديدة أو إذا أخذنا اللفظ القرآنى. ترك صورة من الطبيعة إلى صورة أخرى.. إلا أن هذه الصورة الجديدة بحاجة دائمة إلى الرعاية، لأن أمل القبائل التى كانت مستفيدة من الغارة والإفساد، هو أن تزيل السد الذى أنشأه القوم ليحمى أمامه ممتلاكتهم وأرواحهم.. وكأن السد أصبح هدفا متنازعا عليه بين قوم يريدون حمايته وقوم يريدون دكه.

المعنى الثانى: أن هذا السد سيظل قائما إلى أجل معلوم يحدده حرص المنتفعين منه عليه، وصيانتهم له، وترميمه كلما ظهر فيه شق أو صدع.. فإذا ضعفوا عن ذلك أو انصرفوا عنه استطاع المفسدون اقتحامه وفاض بهم الفج بين الصدفين. وماج المفسدون في القوم،ويبدو بهذا وجه في التأويل

﴿ وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖ﴾.

وإلى هذا الوجه من التأويل ذهب بعض المفسرين، بل ذهبوا إلى أبعد من هذا عندما فسروه بغارات المغول على الدولة الخوارزمية وبغداد عاصمة الخلافة العباسية واكتساح أجزاء كثيرة من المشرق الإسلامى ولكل من الوجهين ما يستند إليه من أحداث التاريخ.. وبهذا يكون السد قد أصبح دكا.. والبحث عنه ـ في صورته التى رسمها القرآن ـ بحثا عن صورة طوتها أحداث التاريخ.. وإذا بقى

شئ فهى آثار محددة يمكن أن تشتبه مع غيرها، ويصعب معها الوصول إلى يقين تؤيده الشواهد ولا تنفيه شواهد أخرى.

المعنى الثالث: أن يكون المقصود من قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ٩٨ وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖ﴾ ربط هذا الدك بمقدمات القيامة.

ولعل المعنى الأول والثانى أقرب إلى سياق القصة، ذلك لأن المعنى الثالث يحمل التأييد، ويجعل عمر السد من عمر الدنيا، ويورث في النفس هدوءًا يقرب من التواكل الذى ينهى عنه الإسلام..

إن المشروع من أوله مشروع يقظة وتعاون وعمل، ومن المنطقى أن تنعكس آثاره على حياة القوم يقظة وصيانة للسد، وقدرة على حجز المفسدين يموج بعضهم في بعض، هذه صورة أولى.. ويحدث الموج الخطر إذا اندك السد وماج المفسدون في القوم.. والوعد هنا ترتيب النتائج على المقدمات..

ننتقل إلى قول الله تعالى:

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا ٩٩ وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا ١٠٠ ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا ﴾ عطف على صدر الآية وهو قوله تعالى ﴿ وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖ﴾

ولكن هنا وقفة..

يقول الإمام الطاهر بن عاشور فيها:

هذا: تخلص من أغراض الاعتبار بما في القصة من إقامة المصالح في الدنيا على أيد من اختاره الله لإقامتها من خاصة أوليائه، إلى غرض التذكير بالموعظة بأحوال الآخرة. وهو تخلص يؤذن بتشبيه حال تموجهم بحال تموج الناس في المحشر، تذكير للسامعين بأمر الحشر وتقريبا بحصوله في خيال المشركين، فإن القادر على جمع أمة كاملة وراء هذا السد، بفعل من يسره لذلك من خلقه،

هو الأقدر على جمع الأمم في الحشر بقدرته، لأن متعلقات القدرة في عالم الآخرة أعجب. وقد تقدم أن من أهم أغراض السورة إثبات البعث[1].

واستعمل الماضى موضع المضارع تنييها على تحقيق وقوعه. والصورة التى تذكرها الآية ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعًا ﴾ من غيب الله الذى تراه الخلائق يوم القيامة.

وحين تقرأ قول الله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعًا ﴾ تحس رهبة وتساؤلا.. نفخ فعل مبنى للمجهول.. بينما الصور معرف. وعلى من يعود الضمير في قوله تعالى: ﴿ فَجَمَعۡنَٰهُم ﴾.. البشر جميعا من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة؟ وهل نحن وحدنا في هذا الكون؟ هل هناك عوامل أخرى يشملها ضمير. فجمعناهم.. البشر؟ الجن؟ العابدون؟ المعبودون؟ الشياطين؟ الملائكة؟ ألسنا نقرأ في القرآن الكريم ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴿٢٢﴾ ﴾ وتأكيد الجمع بقوله تعالى: ﴿ جَمۡعًا ﴾ هو جمع لايغادر عالما من العوالم التى خلقها الله ﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾.

تأمل قوله تعالى: ﴿ وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا ﴾ جهنم هى التى يعرضها الله للكافرين. وكيف عرض نار وقودها الناس والحجارة ﴿ إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ﴿١٣﴾ لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا ﴾ (الفرقان: ١٢ –١٤) وهذه المقابلة في وصف الكافرين بين قوله تعالى:

﴿ وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا ﴾ وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي ﴾

(١) التحرير والتنوير ١٦..٤١

الآن تفتحت الأعين ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ (ق: ٢٢) وفى الدنيا كانت هناك الفسحة في الوقت، وأصوات الحق تتردد وبيوت الله مفتوحة وآيات الله في الأنفس والآفاق تملأ الكون.. بل الكون كله آية.. وآيات. فصرف الكافر عينه عن هذا كله. غطى العين بحجاب الهوى والشهوة والمنصب والجاه والتنازع على الفانى مما ظنه من الطيبات.. فعاش الكافرون ولهم أعين لا يبصرون بها..

ولفظ الكفر يفيد الغطاء. والزارع سمى كافرا لأنه يكفر البذر في الأرض. وكان الإيمان مغروس في كل نفس.. والإنسان إما أن يرعاه ويزكيه ويتبع سبيل المؤمنين، وإما أن يكفره ويغطيه ويدوسه في تراب أهوائه.. هو موجود. ولكن تحت أطباق المطامع والشهوات والجحود.. ثم قوله تعالى: ﴿ وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ لم تقل الآية وكانوا لايسمعون. آلة السمع موجودة. ولكن لهم آذان لايسمعون بها. هم الذين وضعوا أصابعهم في آذانهم، واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا. فنفى استطاعتهم السمع يفيد أنهم لشدة كفرهم لا تطاوعهم نفوسهم للاستماع. وحذف مفعول ﴿ سَمْعًا ﴾ لدلالة قوله تعالى ﴿ عَن ذِكْرِى ﴾ عليه. والتقدير. وكانوا لايستطيعون سمعا لآياتى. ونفى الاستطاعة مستعمل في نفى الرغبة وفى الإعراض كقوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ أعين حجبت نفسها عن نور الحق، وآذان حجبت نفسها عن صوت الحق، تجد أنها تواجه جهنم ولا تستطيع إلا أن تراها وتسمع زفيرها.. أعاذنا الله منها.

فماذا بعد العرض؟ إنه مواجهة الكافرين بما كانوا يعبدون ثم نرى صورة كريمة لثواب المؤمنين.

٥٧ـ ختام السوره: طريق الكافرين

﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ

فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾

الكلمة الأولى في الآية هى قوله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبَ ﴾ وحرف الاستفهام فيها وهو الهمزة مقدم على فاء العطف لأن للاستفهام صدر الكلام. ومن نظائره قوله تعالى: ﴿ أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٧٥).

وهذا الاستفهام في صدر الآية إنكارى فالله تعالى ينكر عليهم ما يحسبونه ويقتضى هذا أن يكون ما ظنوه باطلا.

ولكن ما الذى ظنوه؟ إنه اتخاذهم عباد الله من دونه أولياء.

ومن عباد الله الذين تقصدهم الآية؟ نستطيع أن نفهم المقصود من العودة إلى قول الله تعالى في وصف مشهد القيامة:

﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴾ (مريم: ٨٨ – ٩٥)

ولقد عبد الناس من دون الله الملائكة والجن والشياطين والأنبياء.. بل عبدوا مما عملت أيديهم أصناما، وظلوا عليها عاكفين.. ومادة هذه الأصنام هى من صنع الله تعالى، هو خالق معادنها وأحجارها، فكل ما في الكون من دون الله خلقه، وهو عبد لله لا يخرج عن طاعته والولاية هنا لا تقتصر على العبادة بمعناها المحدود من قيام وركوع وسجود، وإيمان بأنها تنفع أو تضر، ولكنها تشمل الاتباع والطاعة، وإن خالفت أمر الله تعالى، فطاعة الظالم والباغى والسير فى

ركابه.. هى في نظر الإسلام عبادة، وطاعة الهوى عبادة، وفى هذا يقول الله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ (الفرقان: ٤٣) وقوله تعالى (﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

هؤلاء الذين عاشوا في دنيا غيرهم، واتخذوهم أربابا من دون الله ما موقفهم في الآخرة إن الله سبحانه وتعالى يسجل تخاصمهم في هذا اليوم المشهود بقول الله تعالى:

﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ (البقرة: ١٦٥ –١٦٧)

وما مصير هؤلاء الذين اتخذوا عباد الله من دونه أولياء؟ نسمع النذير في قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴾ ذلك لأن هؤلاء الأولياء ما نفعوهم في الدنيا. ولن ينفعوهم في الآخرة.

وأعتدنا "هى: أعددنا" أبدلت الدال الأولى تاء لقرب الحرفين. والاعداد والتهيئة.

والنزل. ما يُعد للنزيل والضيف من القرى والطعام.. ولا زال لفظ "النزل" يطلق على الفندق.. أو دار الضيافة.. وكأن ضيافة الكافرين النار.. وسنرى أن لفظ "نزل" سياتى في مستوى المؤمنين.. ولكل نزل ما فيه من استقبال يليق بمن يحل فيه.. للكافر العذاب، وللمؤمن دارالخلد والمقامة لا يمسهم فيها نصب ولا يمسهم فيها لغوب.

ثم يؤكد القرآن هذا المعنى فيما نستقبل من آيات في خواتيم سورة الكهف، حيث يبدو مصير كل من الإيمان والكفر وتحديد الطريق الذى يسلكه من

كان يرجو لقاء ربه.. هنا في هذه الخواتيم، يترابط مدخل السورة بما جاء فيها من القصص، في نسق يهدى إلى الإيمان، والإيمان في سورة الكهف- كما هو في القرآن كله مطلع وغاية وطريق، يقول تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾

((قل)) تدعونا جميعا إلى التنبيه إلى أمر عظيم بعدها.. وهذا أسلوب آخر في إبراز أهمية المقول، كما رأينا في الآية السابقة الاستفهام الإنكارى في قوله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ﴾.

فى خواتيم الكهف ستتوالى البشارات والنذر، وتتنوع أساليبه، كأنها طرقات قوية توقظ الغافل، وأضواء كاشفة تنير الطريق، وأعلام مرفوعة تجذب النظر، في خواتيم الكهف تحس قوة النبض في الآيات، وتكثيف المشاهد وسرعة تتابعها، كأنها تلخص السورة كلها بكل ما فيها من قصص وعبر ومشاهد وكأن المؤمن قد أصبح عينا تنظر، وأذنا تسمع وقلبا يعى، وتركز وجوده كله في هذه الثلاث: السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا..

ثم تأتى كلمة ((هل)) استفهاما يدعو إلى مزيد من الاهتمام وإذا أمر الله رسوله أن يقول: كأن الاستفهام هنا دعوة إلى الاستماع ويأتى بعدها قوله تعالى: ((ننبئكم)) بنون العظمة الإلهية.. ثلاثة تأكيدات متوالية في ثلاث كلمات.. يأتى بعدها موضوع الإنباء((الأخسرين أعمالا)) ولم تقل الآية الخاسرين.. هكذا بالمبالغة في الخسران.. وياليتهم يشعرون به. إنهم في ضلال.. ضلال مستمر ضل سعيهم في الحياة الدنيا، ليس يومًا ولا عامًا ولكن أسلوب حياة، ورغم ما يلقون من عواقب الخسران يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

وهنا يبدو التناقض في الموازين: لهم ميزان يرون به القبيح حسنا، والضلال هدى. وعندهم الاستعداد للدفاع عن مسارهم باعتباره حسنا. وهم عليه عاكفون

وتأمل قوله تعالى: ((سعيهم)) والسعى المشى في شدة. أى أنهم كانوا يجدون، ويبذلون الجهد في ضلالهم، دون أن يشعروا بأى خطأ..

وانظر إلى عباد الأصنام القديمة والجديدة، والصنم القديم كان من حجر أو معدن جميل القسمات أو مرعبا.. أما الأصنام الحديثة، فأكثرها أفكار يصوغونها في مناهج وخطط يعكفون عليها عكوف العابد القديم أو أكثر ولها أيضا أعيادها، ولها كهنتها، و لها حتى كتبها المقدسة أو شبه المقدسة وحاول أن تقلب النظر حولك، سترى حتى الذين يدعون الكفر بكل دين قد اتخذوا لأنفسهم طقوسا ومناسك، كأنها أديان جديدة. ولهم قبور يحجون إليها، ولزيارتها تقاليد. ولهم كتب يدرسونها ولها كهنة وأحبار. ولهم حتى شياطين يعادونهم ولكل مذهب من هؤلاء ملائكة وشياطين، تغيرت الأسماء كأنها معادلات رياضية غيرت رموزها لا أكثر..

هؤلاء الذين حاولوا جذب الآخرة إلى الدنيا، فجعلوا من دنياهم دنيا وأخرى، وجعلوا من قادتهم أشباه آلهة، شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله وجعلوا رضاهم على الأنصار جنة، وغضبهم على الخصوم والأعداء نارا..

ستجدهم حولك في الدنيا كثيرين، يجمعهم قول الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ ﴾ إنه ربهم رضوا أو كرهوا، اعترفوا أو أنكروا.. وسيعودون إليه ولا بد من لقاء، لقاء بينهم وبين ربهم، وأعمالهم هذه خاسرة- رغم الجهد المبذول فيها. وهى عند الله لا وزن لها، ليس معنى هذا أن الله لا يحاسبهم ولا يزن أعمالهم وإنما المقصود ـ والله أعلم ـ أن الصورة يوم القيامة من الوضوح بحيث لاتحتاج إلى وزن أو أن نتيجة الوزن معروفة سلفا، أو أن لاقيمة لها.

ثم بين الله تعالى من أمر الكافرين أنه لم يكن مقتصرا على ضلال السعى وإنما امتد إلى الإساءة إلى المؤمنين وإلى الحق وأنهم اتخذوا آيات الله ورسله هزؤا.

ولكن لنذكر أن القرآن سجل لهؤلاء في الدنيا سعيا وعملا.. وأنهم لم يكونوا سلبيين في الحياة، وإنما كان منهم الضلال في الطريق، وإذا كان الكافر في الحياة إيجابيا، فأولى بذلك المؤمن، فلننظر صفته في الآيات التالية.

٥٨- وطريق المؤمنين

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلاً ﴿١٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلاً ﴾ آيتان عن المؤمنين، بعد ست آيات عن الكافرين، نستعيد بها ما جاء في صدر سورة البقرة من تركيز وصف المؤمنين، والإفاضة في نسق يصف الكافرين المنافقين..

فلنتأمل هاتين الآيتين، وما تحملان من معانى غزيرة ترتبط بسياق السورة، وبالسباق القرآنى في الهدى.

جاءت أولا إرادة التأكد "إن". وهذه تقابل التأكيد الذى جاء في وصف ومصير الكافرين.

الذين آمنوا: تعطى أمرين: الأول الإيمان في ذاته، والثانى: الاجتماع عليه.. وهذا الاجتماع يتخطى حدود الزمان والمكان. هو أولا مصالحة بين الإنسان وربه. وهو رباط يجمع أفراد الأسرة المؤمنة.. بروابطها الأفقية بين أبناء الجيل الواحد، والرأسية في أجيالها المتتابعة، وهو الذى يجمع أبناء الحى على المودة والتراحم ويجمع أبناء الوطن على كلمة سواء، بعد حوار وتشاور يستهدفون به الخير، ويجمع أبناء العقيدة على التعاون فيما بينهم، ومع غيرهم، من أجل خير يعمهم، ودمغا لشر يراد بهم، وفتحا لآفاق جديدة في الحياة..

من أجل ذلك سمى الله الإيمان في القرآن نورًا:

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (البقرة: ٢٥٧).

والنور في الآية، واحد والظلمات كثيرة، ضع كلمة الظلمات من هذه الآية مع قول الله تعالى في وصف الكافرين في الآيات السابقة من سورة الكهف: ﴿ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلاً ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ وقف قليلا عند ﴿ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ ﴾، واذكركم

اتجاها يسلكها الإنسان إذا ضل عن طريق الصواب وهو يظن أنه على هدى الطريق..

تأمل هذا مع قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأنعام: ١٥٣).

فالصراط المستقيم واحد، والسبل سواه كثيرة.. تماما كالنور المفرد والظلمات المتعددة.

ننتقل مع الآية خطوة أخرى وهى قوله تعالى: ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ وما الصالحات؟ نستعيد التقسيم التقليدى لأعمال الإنسان:

العبادات، المعاملات، الأخلاق، ونأخذ من نسيجها ثمرة. هى صياغة الحضارة محافظة على الأصالة وتفتحا على الجديد وإبداعا في الحياة دون جمود أو إنغلاق أو انفلات.

فى الصالحات، جزء ثابت وجزء متغير، وأبرز الثوابت العبادات، وأسس المعاملات، وأبرز المتغيرات أساليب المعاملات، وآفاق الاجتهاد في العلم والسياسة والاقتصاد، ومناهج الفكر وأساليب الحياة.

والإسلام قام على تفصيل ما لا يتغير، كالعبادات وعلى إجمال ما يتغير، وهى أساليب الحياة فكرا وتنفيذا..

من أجل ذلك ينبغى أن تتسع الآفاق، لتقبل متغيرات الصالحات، فما كان صالحا في عصر قد يصبح متخلفا في عصر آخر، ويحتاج فيه إلى صالحات جديدة متطورة.

وإن تقدم أى مجتمع يقوم على أساسين عريضين: تمسكه بالثابت من العقيدة، والإطار السلوكى العام، وقدرته على تطوير الصالحات، لتتلاءم مع الحياة الجيدة.. بل لتصنع وتدفع الحياة الجديدة..

ولنأخذ لذلك مثالا قريبا، تعانى منه الدول الإسلامية بدرجات متفاوتة، وهو أساليب إعداد الجيل الجديد للحياة الجديدة.

ولعل التربية من أبرز التحديات التى تقابل أى مجتمع، ذلك لأنها تجمع بين الأصالة والتجدد بين المحلية والعالمية، بين تحصيل معرفة سابقة وفتح الطريق أمام الإبداع، إنها الحياة في استمرارها. والعلم لا يعرف حدود الزمان والمكان ولا الإقليمية وصدق الله العظيم:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت: ٥٣)

والأنفس والآفاق هما المجالان الرئيسيان لتجلى قدرة الله.. وتجلى إبداع الإنسان في طلب العلم، والعلم – في أبسط تصويره- مزيد من الفهم لما في الأنفس والآفاق، الإنسان والبيئة. الوجود الصامت والناطق والفكر..

وكل تطوير في أساليب التربية من الصالحات، ذلك لأنه يعين على تكوين المواطن الصالح، القادر على التعامل مع الحياة بنجاح. ومن هذا التعميم ننتقل إلى شئ من التخصيص، عرضت له في إجمال عند عرض قصة ذى القرنين، وهو التعاون بين الفكر واليد في الإنتاج، وبين القيادة والقاعدة في التنظيم، وبين التخطيط والتنفيذ والابتكار في حماية المجتمع، وكان التركيز على توثيق الصلة بين العمل اليدوى والفكرى، وعلى مزيد من العناية بالتعليم التقنى والمهنى.

وكل تطوير يلقى بعض المقارنة ممن عاش الأساليب السابقة، ولم يشرح صدره للجديد. وقد يكون المجتمع راغبا في التغيير، وتحول قدراته المالية دون ذلك، وقد يتوفر المال وتقعد الهمم عن تحمل مسئوليات التغيير وقد تنهض الهمم ولا تتضح الخطط وقد تتضح الخطط ولا يتوفر الصبر الطويل على التجربة حتى تؤتى ثمارها.. وكل عقبة نزيلها من الطريق، هى من الصالحات، وإزالة العقبات بالتفاهم والحسنى، من أفضل الصالحات، والله تعالى يخاطب رسوله بقوله:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩)

وما نقوله عن التعليم، ينطبق على آفاق الحياة الأخرى: اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا وعسكريا. إن حماية الوطن بحصون العلم وشبكات الدفاع. وطلب العلم والخبرة المعينة على هذا كله من الصالحات، وقيام الدول الإسلامية ببذل المزيد من الجهد العلمى والتقنى والمهنى، حتى تستطيع أن تنتج سلاحها الذى تصون به حريتها وأرضها واستقلال إرادتها.. كل أولئك من الصالحات.

بهذا الفهم الواسع نستطيع أن ندرك بعض أبعاد قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾

وأن نرى الكرامة التى أعدها الله لهم فى الدنيا فى قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (النور:٥٥)

وفى قوله تعالى: ﴿ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ما يوضح أن هذه من سنن الحياة التى يوضحها القرآن.. وتأمل تأكد الأفعال فى الآية: ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ﴾ ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ﴾، ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ هذا جزاؤهم فى الدنيا لو أحسنوا الإيمان والعمل. فما جزاؤهم فى الأخرة؟ نعود إلى الآية الكريمة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ كانت بالفعل الماضى تدل على أن استحقاقهم لهذا الجزاء أمر مستقر من قبل. واللام فى قوله تعالى: (لهم) تدل على الصلة بين العمل والجزاء والجنات بالجمع تقابل تنوع الصالحات التى قدموها فى الحياة، وهذه الجنات فى تنوعها هى كلها نزل المؤمنين، فهناك وحدة النزل وتنوع الجزاء فيه.. تماما كوحدة الإيمان وتنوع الأعمال، ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ : تدل على البقاء المستمر الذى مات فيه الموت وأكرم الله فيه عباده بالخلود.

هذه عطايا الله، وما أعده لعباده، ولكن هنا جملة تستوقف النظر في الآية وهى قوله تعالى: ﴿ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ لا يريدون عنها تحولا.

وإذا كان الإنسان ملولا، كثير الرغبة في التحول، فإن في جنات الفردوس من التنوع والسعة، وما تقر به العين، ونعم الله.. فيها من كل هذا ما ينفى عن المؤمن آي رغبة في التحول عنها..

جعلنا الله من العاملين لها في الدنيا ومن أهلها يوم لقائه.

٥٩ ـ كلمات ربى

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾

وهذه أيضا من الآيات الجامعة في خواتيم سورة الكهف، ومن قبلها جزاء الكافرين وجزاء المؤمنين، ومن بعدها الآية الخاتمة، وفيها التوحيد والرسالة والوحى والعمل الصالح والجزاء في نسق واحد. وترتبط هذه الآية بما جاء في صدر السورة، وذلك قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴾ ثم قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا ﴾

ما في السورة من قصص وما في الكون من آيات كلها من كلمات الله وكلمات الله لا تنفد..

ومع هذه الآية نذكر ما جاء في سورة لقمان: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (لقمان:٢٧)

وأول ما نلحظه في الآية الكريمة عن كلمات الله في سورة الكهف أن كل ما فيها من أسماء جاء مفردا إلا لفظ كلمات.. ولنستعدها معا:

الأسماء المفردة: البحر. مدادا. وقد تكررت كل منهما مرتين.. وكلمات: هى اللفظ الوحيد الذى جاء جمعا.

والمداد اسم لما تمد به الدواة من الحبر، وما يمد به السراج من الزيت. والمعنى لو كتبت كلمات علم الله وحكمه، وكان البحر مدادا لها. والمراد بالبحر الجنس - أي جنس البحر - لنفد قبل أن تنفد الكلمات وتقرير الكلام - كما يقول الفخر الرازى: "أن البحار كيفما فرضت في الاتساع والعظمة فهى متناهية ومعلومات الله غير متناهية. والمتناهى لا يفى البتة بغير المتناهى..أهـ

ولكن ما المقصود بقوله تعالى: ﴿ كَلِمَٰتُ رَبِّى ﴾ ولماذا جاءت في هذا السياق بهذا النسيج: كلمات والرب والضمير المتصل..

نعود إلى سبب النزول:

إن المشركين لما سألوا الرسول عن أشياء يظنونها مفحمة له، ولا قبل له بعلمها، علمه الله إياها. وأخبر عنها أصدق خبر، وبأقصى ما تستطيع أفهامهم أن تقبله، وبما يقصر عنه علم الذين أغروا المشركين بالسؤال عنها، أتبع هذا بما يعلم منه سعة علم الله تعالى، وسعة ما يجرى على وفق علمه من الوحى، إذا أراد إبلاغ بعض ما في علمه إلى أحد من رسله. وفى هذا ربط خواتيم السورة بصدرها.

وقال الترمذى عن ابن عباس: قال حيى بن أخطب اليهودى: في كتابكم ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾.. ثم تقرأون ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾، فنزل قوله تعالى ((﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى ﴾.. الآية)) (التحرير والتنوير ١٦:٥١ـ٥٤)

والمداد في الآية يمكن أن يكون مداد البحر أو زيت السراج.. الأول يمد الأقلام بما تكتب والثانى يمد السراج بما يضىء به.

ولو كان البحر مدادا لكلمات الله المقروءة.. وكلمات الله المنظورة في الكون.. وكلمات الله وهى قوانين هذا الوجود، وهى ما يحاول العلم والجهد السعى وراء كشفه.. وما وراء ذلك من عوالم وغيوب.. لو كان البحر مدادا لتسجيل ذلك لنفدت مياه البحار جميعا، ولو توالى إمداد البحار ببحار..

وإذا انتقلنا إلى المعنى الثانى وهو زيت السراج، اقتربنا من قول الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖ ﴾ (النور: ٣٥)

فنتصور هذه البحار زيتا يضىء سراجا ويمده من بعدها بحار مثله،سيظل السراج مضيئا.. وله من عند الله مدد غير ما تحسه أذهاننا حتى من هذا التشبيه.

كلمات الله علم مطلق لا حدود له، ونور مطلق لا قيد له، ومع جمال الكلمات وجلالها، وامتدادها وإحاطتها، يحس الإنسان الأنس وهو يقرأ هذا الجزء من الآية ﴿ كَلِمَٰتُ رَبِّي ﴾. نعم بهذا الضمير المتصل الدال على القرب واسم الربوبية الدال على التربية والرعاية والتكوين والتسديد.

فمع الإحاطة والعظمة الإلهية قرب وتقريب إنسانى.. والخطاب الإلهى للرسول المصطفى عليه الصلاة و السلام ـ قل يا محمد أخبرهم: ﴿ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي ﴾

وتأمل الأثر الذى تتركه في النفس والعقل تكرار (كلمات ربى) في موقف التفضل على المؤمنين، والتحدى للكافرين، والدفاع عن رسوله وتأييده بالوحى..

ولا تقف الآية عند هذا المدى،وإنما تنتهى بقوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴾

إن نفاد كلمات الله مستحيل. وتقييد نفاد كلمات الله بقيد الظرف الزمانى وهو نفاد المداد (قبل) نفاد الكلمات، ينبغى إدراكه في ضوء الغرض الذى يبينه عجز الآية،ولو جئنا بمثله مددا.. أي مددا لا ينقطع ومهما زاد المداد والمدد فكلمات الله لا نفاد لها ومن بينها المعلومات أو الأسئلة التى حاولت قريش بعون من اليهود تحدى المصطفى بها ﷺ.

الإحاطة بعلم الله هى من صفات الله جل وعلا أما نحن البشر فبين أيدينا ما أفاض الله علينا من كلماته،وما فتح لنا منها في علوم الأنفس والآفاق. فماذا نحن

فاعلون بها؟ هذا ما تبينه الآية الخاتم في السورة.. وقبل أن ننتقل إليها، نقف قليلا عند المقارنة بين الآيتين اللتين تصفان كلمات الله.. وقد عرضنا آية الكهف، فلننظر في آية سورة لقمان: يقول تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

ويستوقف نظرنا أن سياق سورة لقمان جاء في سياق الصراع بين الحق والباطل، وشدة عناد الكافرين، وسوء العذاب الذى ينتظرهم، مع اعترافهم بأن السماوات والأرض من خلق الله..

موقف هذا الصراع العنيد يختلف عن موقف التحدى العلمى في سورة الكهف..وحاجة الرسول والذين معه إلى الربط على قلوبهم وإيناسهم في سورة الكهف تقابل حاجتهم إلى قوة الله في الدفاع عنهم وتثبيت الإيمان في قلوبهم في سورة لقمان.

وتسمع آيات سورة لقمان قبل هذه الآية فكأنك في معركة الدعوة بلفحها والثبات فيها ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ ﴾ ثم بعدها: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾

ثم تتوالى بعد هذا الآيات المظهرة لقدرة الله وعظمة الخلق..

هنا موكب من الجلال تخشع له النفوس وتعنو للحى القيوم وأنت ترى تعدد مكونات التشبيه، الشجر، الأقلام، البحر سبعة أبحر، المدد..

ولك أن تتصور تحول أشجار الأرض جميعا إلى أقلام والبحار جميعا إلى مداد.. ووراء البحار سبعة أمثالها، ورقم سبعة هو أكبر الأرقام الصماء بين الواحد والتسع، الذى لا يقبل القسمة،ثم هو الرقم الذى يدخل في تكوينه الواحد الصحيح، ومضاعفات من الأرقام الفردية، والزوجية من قبله ففيه صفات لا تتوافر في الأرقام قبله وبعده..

وإذا كان الواحد الصحيح رمز التوحيد والوحدة، فإن سبعة رمز الكثرة هى ومضاعفاتها..

هذا التشبيه يستبعد أن يكون المدد فيه زيت السراج كما يسمح بهذا تشبيه سورة الكهف..

وتأمل بحارا متتابعة تمد أقلامها كل أشجار الأرض.. وشجر الأرض نبات متجدد.. والبحار وراءها بحار..

ثم تأمل الجملة الخاتم فيها: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ هكذا بلفظ الجلالة ويأتى في الآية مرة ثانية بعد قوله تعالى: ﴿ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ هنا يبدو جلال الله وعظمته وفى سورة الكهف يبدو علم الله ورحمته: تحسها في تكرار لفظ ﴿ كَلِمَٰتُ رَبِّى ﴾ وتكرار لفظ الرب، بالضمير المتصل، ومن صفات الجلال والجمال تمتلىء النفس حبا لله، وتطلعا إلى رحمته، وخشية من مؤاخذته وعذابه..

فلكل من الآيتين هدف، ولكل منهما في النفس تأثير، وكل منهما تتكامل مع السياق الذى جاءت فيه.. وصدق الله العظيم:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢).

٦٠ـ العقيدة والحياة في آية

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾

نصل إلى الآية الخاتم في سورة الكهف وفيها خلاصة السورة كلها، بل خلاصة الدعوة الإسلامية في شمولها.. ولننظر إلى هذه الركائز:

أولا: قل: والرسول ﷺ يتلقى الأمر من ربه. ولفظ قل يحمل الإيمان بالألوهية. فالله خالق كل شىء وبالربوبية، فهو الذى أنشأنا، ورعى الإنسان وهو جنين في بطن أمه وجعل له السمع والبصر والفؤاد، فأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة.